رواية

مرشد سياحي

رحلات في زوايا الحقيقة



ريم بسيوني

مرشد سياحي

رحلات في زوايا الحقيقة

روايـة: ريم بسيوني

إشـراف عام: داليا مُحَمَّد إبراهيم

الترقيم الدولي: 978-977-14-5538-7

رقـم الإيـداع: 13616 / 2017

طـبـعـة: يـونيـو 2017

21شارع أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة

تليفـون: 33466434 - 33472864 02

فاكـــس: 33462576 02

خدمة العملاء: 16766

Website: www.nahdetmisr.com

E-mail: publishing@nahdetmisr.com



"مرشد سياحي"

Messages

،Dear Erica

Any news of the tour guide ?

Norma

Dear Norma ,

Still exploring

Erica

رسائل

عزيزتي إيريكا

هل هناك أي أخبار عن المرشد السياحي؟

نورما

عزيزتي نورما

ما زلت أبحث

إيريكا

عزيزتي نورما :

أعتقد أننا وجدنا ما نبحث عنه، لقد اكتشفت شخصًا من طراز مختلف، يتوسط عالمين: عالم حقيقي، والآخر حقيقي أيضًا، ولكن بعيد المنال ويحتاج إلى البحث، الكثير من البحث.

لن أطيل عليك، مؤمن الوكيل مرشد سياحي، وعدني أنه سيكشف لي عن حقيقة مصر، قال: «مهمتي ليست أن أجعل رحلتك ممتعة، بل أن أجعلها رحلة العمر».. هو من نبحث عنه.

إيريكا

الباب الأول
رحـلات...الرحلة الأولى

مؤمن الوكيل كان يصطدم بالواقع كل يوم، والصدام غالبًا ما يؤدي إلى كدمة في مكان ما، وكان يسامح الواقع أحيانًا ويتركه يعبر في سلام، وأحيانًا أخرى تسيطر عليه العزة ويلكم الواقع لكمات قوية، غالبًا ما تطرحه أرضًا إلى حين، ثم يعود فيتحرش به من جديد، وينغص عليه أيامه ولياليه. ومن واقعه المؤلم أنه يعمل منذ تخرجه مرشدًا سياحيًّا، وهذا العمل يفوق في صعوبته عمل الفنان والممثل المسرحي والطبيب النفسي وبائع الهوى ومؤرخ العرب مجتمعين. وفي هذه الأيام العصيبة أصبح عمله مثار حروب شرسة وقذرة ومنافسة غير عادلة؛ فمنذ بداية هذا اليوم والحياة تبدو معقدة تعقيدًا يشبه تعقيد القرارات السياسية والإنسانية، وعندما يبدأ اليوم بصدمات زوايا الواقع يكون يومًا عصيبًا كأيامنا و ليالينا.

عندما خرج من المركب الذي يعمل عليه حاليًّا في الأقصر صباحًا، وشمس الأقصر لا تخجل من إبداء زينتها، وجد عصًا يبلغ سمكها مبلغ عقول المسيطرين على مصائر العباد. وإذا تلك العصا تخزه في بطنه كالجوع والأيام الغابرة وخزة أفقدته توازنه وأوقعته، وبعد هذه الوخزة كان من له شرف محاولة قتل مؤمن أو تأديبه أو الانتقام منه في لحظات داخل سيارة بيضاء محلقًا مع الشمس خارج الأفق .

وكان وخز العصا بداخل الأحشاء مؤلمًا إلى درجة لا يتوقعها. للحظات شعر بطعم الدم يخرج من فمه، وظن أنها النهاية. عرف أن العصا كانت تبغى كبده لتقضي عليه. اختلت العينان، وزاغ البصر، وجاء يقين الواقع بـ " من الفاعل."

أمير عابدين. لا بد أنه هو؛ فقد تعلم مؤمن في سنواته الأخيرة أن الخير يأتي بأسباب واضحة ومنطقية، ويمكن فهمه وقياسه وسط الجموع، وأن الشر كالحب والموت، لا يخضع لمقاييس عقلية، ولا يمكن توقعه أو تحاشيه. ومادام سطوع الشر يأبى الفهم فهو الباقي بقاء الموت والحب، هو حقيقة الكون، بل هو كل الحقائق مجتمعة وكل زوايا الواقع وأفق الأمل واليأس. حاول أخيرًا محاولات يائسة لفهمه، ولم يستطع. أمير عابدين بدأ حياته مرشدًا مثله..تقابل مع زوجة أجنبية في منتصف العمر كما يفعل الكثيرون، بقي معها حتى اعتصر ما تبقى من عمرها وأموالها. بيته لم يزل أسطورة ملهمة في البر الغربي لرجل عصامي تعب في أمواله أكثر من تعب العاهرات في حواري القاهرة. ودفع عمره لشراء أرض وبيت

وشركة، ولم يفارق زوجته سوى عندما مرت بأزمة صحية واحتاجت للعلاج في بلادها. رحلت وفتح هو شركته. وأصبح أغنى الأغنياء، وتزوج ممن تصغره بعمر. وكان لديه تجارات أخرى جانبية ليتجنب أزمه السياحة، تجارات كلها مشبوهة. لا بد أنه أمير عابدين الشديد الكراهية لمؤمن لسبب يستعصي على المنطق والعقل البشري. فأمير يكبره بعشرين عامًا، وأمواله تمتد لعشرين عامًا أخرى، ومؤمن مرشد سياحي فقط.

* * *

أمسك مؤمن برأسه. سمع أصواتًا من حوله. شعر بأنفاسه تتوارى وعينيه تنسحبان إلى أعماق روحه. كان لا بد له أن ينهض؛ فاليوم مليء بالعمل. والأيام الخوالي كثيرة. كان لا بد أن يلحق بالمرشدة الجديدة التى تجيد الصينية، وأن يبدأ رحلته الشهرية مع كمال المنسي، وأن يقابل صديقه «محمود» ليلًا، وأن يؤكد على صفقته مع الوفد الصغير الجديد ومع إيريكا الجاسوسة.... هناك الكثير اليوم.

همس وهو يضغط على بطنه لعل الألم يتوقف: أنا بخير... ساعدني على القيام.

نفض الغبار عن ملابسه، واتجه إلى الفندق ليقابل المرشدة المتخصصة في اللغة الصينية. وفي أثناء سيره كان يفكر في الطريقة الجديدة للانتقام من أمير عابدين. لا بد أن يخزه وخزتين على الأقل حتى ينام في سلام، وإن ضاع عمره لا يبالي، يتحمل الهم كغيره من المصريين، ولكن أن يترك حقه فهذا مستحيل، لم يزل في الجب مفاجآت كثيرة، هكذا أيقن مؤمن.

* * *

مؤمن الوكيل محترف إبداع الواقع وخوض المسلمات، نشأ في أسوان، أصغر إخوته، وأكثرهم تأقلمًا وفهمًا لنفسه وللآخرين، كان خجولًا في مراهقته، دمث الخلق، وأكثر شخص محبوب في عائلته. حجرته لم تزل كما هي منذ ترك بيت والده منذ أكثر من عشرة أعوام ليذهب إلى القاهرة حيث يدرس هناك، فاجأته القاهرة كما تفاجئ الكثيرين، صدمته كسيارة
مرسيدس قديمة يلهو بها مراهق سكير، صدمته مرة ومرات. ولم تكن ملامحه الدقيقة وجسده النحيف شفيعًا له في القاهرة، فقد كان لونه الأسود يقف حائلًا بينه وبين الأصدقاء أحيانًا، ولهجته الصعيدية مصدر الاستهزاء من الجميع. وتغير الحال قليلًا عندما تغيرت لهجته في القاهرة وأصبح يتكلم كالقاهريين. وعندما بدأ العمل مع السائحين اكتشف أن

لونه الداكن كنز لا يفنى، وأحد أسباب النجاح في العمل. كان طالبًا عندما دعته سائحة إلى غداء لم ير مثله من قبل في فندق يبدو خارج هذا الكون، يطل على الأهرام، ثم سألته عن نفسه وعن مصر، ثم همست له في رقة: كنت أتمنى أن أزور مصر طوال عمري. أرى الأهرام، مؤمن: هل أنطق اسمك نطقًا صحيحًا؟

أمسكت ذراعه بيدها الناصعة البياض وهو ينظر إليها، وقالت: تمنيت طوال حياتي أن أرى يدي البيضاء هذه على جسد أسود فرعوني بهذا الجمال.

كانت جريئة وجميلة، وكان هذا في الماضي. ماض يتذكره جيدًا؛ فلا بد للمرشد أن يروي الماضي كل يوم ويتذكره ويبدع في حكيه.

وأتقن الكثير من اللغات والشخوص. توقف عن كتابة الأشعار مثل غيره من شباب أسوان وهو في الحادية والعشرين، وقرر كتابة الواقع كل يوم مرة أو مرتين، وفي كل رحلة يغير ما كتب، ويكتب من جديد .

أشعاره القديمة كانت لمحبوبته الملائكية التي تكمن خارج زوايا الحقيقة ولا تعرفه، وربما لا تتذكر وجهه. ولكنها لم تزل هذا الحب اليائس الذي يحتاجه في حياته؛ ليواجه منغصات الزمان. مجنون هو... ككثيرين مثله. لم يزل يحتفظ بالقصائد القديمة لتمجيد الحبيب والاحتفاظ به في مكانة خارج نطاق البشر. حب بلا غرائز. حب غيبي غير ملموس، ولكنه محسوس بقوة اندفاع الرياح. هواء ضروري للتنفس ولا يمكن حصره. يبقي على الأشعار ليتذكر بعض الروحانيات التي كان يتمتع بها قبل العمل مرشدًا سياحيًّا، وقبل مقابلة الشر والموت والأموال المتناثرة التي تحتاج من يلملمها بشراسة الضباع. يبقي على الأشعار في حجرته بين ملابسه، ولكنه حاليًّا يشتاق لجسد جوانا الراقصة الروسية ويعرفه. جمالها لم يعتده وقوامها ولونها الأبيض يحلم به كل الجنوب ولا يدركه أحد. عيناها الصافيتان الزرقاوان، وابتسامتها التي تسحب الروح. اعتادها ولا يملها أبدًا. دائمًا ينتظر منها أن تناديه، ويفهم خوفها من الرجال المنكبين عليها كأنها بئر عسل مصفى، وكانت كذلك بئر عسل شرب منه ولن يسلوه. أما الزواج فلا بد أن يكون من صاحبة نفوذ وبيت عريق. يؤجله لوقت الضيق عندما تغلق أبواب الكرامة أمامه، ويزداد الضغط من أمه ومن أخيه.

أخوه الأكبر عكسه تمامًا. تتجلى له الحقيقة دومًا كاملة ككل مسئولي الدولة والدول جميعًا. دائمًا يعرف الطريق الذي احتار فيه الآخرون بلا تفكير أو مجهود. يتعجب مؤمن كثيرًا، وأحيانًا يتمنى لو درس تحت رايات الدول ليسقى الحكمة وتنكشف إليه كل الحقائق هكذا؛ ولأنه يؤمن بزوايا مختلفة للواقع فلا يحترم حقائق أخيه كثيرًا، ولأن أخاه هو العالم

بواطن الأمور، فهو يدرك هذا جيدًا. فلقاءاتهما مشحونة بالتوتر، ويلزمها دائمًا وجود الأم لتهدئة الأجواء. سامح أخوه يقول في تهكم: مرشد سياحي؟ يعمل مع الغرباء. مع كل غجر الأقصر فلا بيت سيرضى به زوجًا. يعرفون موبقات المرشدين وبيوتهم العامرة بالعهر في البر الغربي بين أمجاد الأجداد، يبيعون أنفسهم رخيصة، وعندما يبيع الرجل جسده ماذا
تنتظرين يا أمي؟! عندما أكون وكيلًا للنيابة ويكون أخي مرشدًا سياحيًا ماذا تتوقعين؟! أصبحت مسخرة الناس من حولي. وليته يتزوج مثلًا من بيت طيب، ولكني أسمع همسات حماتي عن علاقاته وانحرافاته.

عادة لا يجيب مؤمن. بل ينظر إلى أخته الجالسة بجانبه، والتي تعرف كل الحقائق أيضًا؛ فزوجها ضابط شرطة، ويستمع لها عندما تبدأ في الكلام عن أمجاد زوجها في محاربة الفساد والإرهاب معًا وإصابته في مُهمَّته وهجومه الأخير. والحقيقة التي يعرفها مؤمن ولا يواجه بها أخته هي أن زوجها يعمل في نادي الشرطة في أسوان، يتأكد من سلامة الطعام، وأنه ضابط، ولكنه لا يعمل على الحدود ولا بين زوايا واقع الأخطار. كان الزوج يحكي لها عن بطولاته وتنسجم من كلماته وكأنه أم كلثوم وهي تغني سيرة الحب. أما أخوه وكيل النيابة فكان مثاليًّا إلى أبعد الحدود، ولكنه ينظر باستعلاء للجميع، ويعرف الحقيقة المطلقة. وكان استعلاؤه يطال أمه وأخته، وكانت نظرته لأهله بهدف رؤية الثقوب الفاضحة دومًا.
وزوجته ابنة رئيسه كانت مثالًا للإتقان والرقي بالنسبة إليه. أما الأم فقلبها كان يرق لابنها الأصغر الذي يأتي من حين إلى حين ليضحك معها ويعطيها الكثير من الأموال. واقع بيت آل وكيل كان كواقع الكثيرين في مصر.تليفزيونان وقناتان إخباريتان ومصران وعالمان ومجتمعان. الأم متحفظة وضد النظام وتشاهد قنوات خارجية تتجلى فيها ساعات النهاية القريبة والتغيير الجذري، والابن الأكبر مع النظام، يرى في شاشاته الخاصة الإنجازات والطموحات، ويخشى الإرهاب القاتل. يعيشان معًا ويتحاشيان الكلام منذ زمن بعيد، ومؤمن يشاهد الشاشتين ويقتنع بكل الوقائع وكأن العالم اثنان: أشرار وطيبون، هكذا اتفق الاثنان، واختلفا على أي الفريقين الأشرار وأيها الطيبون، مع أن الحقيقة تتجلى بكل وضوح لمؤمن أحيانًا. لا يوجد طيبون في عالمه، وجرح كبده شاهد على خسة الشرير وجبنه، وشاهد أكثر على اختفاء الطيب وتلاشيه، وكأنه كوكب تحجبه الشمس.

ومع كون مؤمن يجيد الكثير من اللغات، فهو يجيد فيها وصف الفراعنة وسحر الواقع لا أكثر ولا أقل. والأهمُّ من كل هذا أنه كان يجيد فهم طقوس التاريخ والعوالم المتدفقة في ثنايا الزمان.

ولكن هذه الأيام الغبراء تضطره إلى تقبل فوج سياحي مصري يعج بالأطفال الذين يتناثرون في كل مكان كالزلط ويخزونه يمينًا ويسارًا ليسألوه أسئلة لا يدري أيُّ عقل كيف برع صاحبها في التفكير فيها. مثلًا، لو كسرت هذا الحجر فماذا

ستعطيني ؟ هل كان الفرعون يدخل الحمام هنا في هذه المياه ؟ هاله الفزع أول مرة من غفوة الأحفاد وبقائهم في غيابات الجهل
سنين وسنين، وكان هناك شيء واحد يحترمه مؤمن هو الأجداد. ولو رأى خدشًا على إبداعهم لا ينام أيامًا. سخط الأفواج المصرية على الآباء واستهتارهم بسيرة الأمجاد دائمًا ما يصيبه بغضب لا يوصف. ما يعشقه مؤمن في جدران المعابد هي الزوايا التي تتغير مع ضوء الشمس، وهذا الفرعون الذي رأى نفسه قديمًا يستحق كل هذا المجد على الجدران. مشكلة
الأفواج المصرية بالنسبة إليه أنها لا تفهم من أين تأتي عظمة التاريخ، فهي لا تأتي من الحروب والانتصارات والمقابر الشاسعة، بل من القدرة على قراءة كل الحقائق بهذا الإتقان، وتسجيلها بكل تفاصيلها بكل هذا الصبر .

* * *

تمتم مؤمن بكل الشتائم التي يعرفها، وهمس لمحمود: تمزح أليس كذلك؟

قال محمود: ما المشكلة؟

نظر إلى الفتاة التي تجلس صامتة بجانب والدها، ثم قال: أتظن أن هذه تصلح مرشدة سياحية؟

قال محمود في رفق: أعطها فرصة؟

-أي فرصة في هذا اليوم المشئوم من أوله. الفتاة قادمة مع والدها يا محمود! هيا تخلص منها في رفق، أريد الذهاب لاستقبال كمال المنسي، أنت تعرف موعده؟

اتجه ناحية باب الفندق، فأمسك به محمود قائلًا: مؤمن طلبت السيدة الأسترالية متحدثًا باللغة الصينية فماذا ستفعل؟ إنهم يدفعون بالدولار.

نظر من جديد إلى الفتاة، كان شعرها أسود مربوطًا على هيئة ذيل حصان، وملابسها تبدو وكأنها من قرن آخر وبلد آخر، بدت وكأنها من كتب الروايات الإنجليزية القديمة بقميصها الأبيض وجونلتها المخططة خطوطًا زرقاء وحذائها

الكلاسيكي، ملامحها متناسقة تنم عن أصل غني، ويداها رقيقتان رقة المرفهين تنمَّان عن أنهما لم تلمسا يومًا جدارًا في القاهرة.
ثم قال: تعرف، يمكنني إتقان الصينية في أسبوع. متى سيأتون؟ ماذا قالت يان في المكالمة؟

- غدًا.

صمت لحظات ثم قال: أنت تدربها وتتصرف معها. وتكلَّم أنت مع والدها.

هز محمود رأسه بالإيجاب، ثم اتجه إلى الطاولة، بعد السلام، جلسا صامتين لحظات حتى سأل الأب في حدة: ابنتي ستعمل مع من؟

قال محمود وهو يشير إلى مؤمن: مؤمن الوكيل، أفضل مرشد سياحي في الأقصر.

نظر إليه الأب في امتعاض، ثم قال: أنا دكتور عبد الهادي، طبيب أمراض الكبد وأستاذ في جامعة القاهرة. لي ابنة واحدة، ولست مقتنعًا بهذا العمل لأكون صريحًا معك، ولكنها رغبتها واختيارها.

نظر إلى ابنته وأكمل: كثيرًا ما لا أفهم اختياراتها، ولكنني أحترمها.

بدا على مؤمن الملل من تاريخ الأب والابنة، وبقى صامتًا وبقيت الفتاة صامتة أيضًا. حتى قال الأب: علياء لم تعتد السفر وحدها ولا المبيت في فنادق وحدها.

قال محمود مسرعًا: لن تبيت في فندق، ستبيت في مركب نيلي مع السائحين.

ردد الأب في عبوس: مركب.

-لها غرفتها الخاصة، وبابها مغلق عليها.

-هل هناك شرب خمر؟ رقص؟ حفلات؟

ابتسم مؤمن فقال محمود مسرعًا: بالطبع لا. كل سائحي الأقصر من أفضل البشر، السياحة هنا تثقيفية، ليست كشرم الشيخ ودهب وهذه الأماكن. كل ما يشغل السائحين هنا هو الآثار والتاريخ .

سكت الأب برهة، ثم قال وهو يوجه كلامه إلى مؤمن: هل تتعهد لي أن تحافظ على ابنتي كأخت لك. أعرف أن الصعايدة جدعان، وأنهم يقدرون الأخلاق والأصول.

هزَّ مؤمن رأسه، وردد: يقدرون الأخلاق والأصول.

-من أسوان أنت، أليس كذلك؟

- بلى.

-اتصل بي لو كان هناك أي مشكلة. هذا رقمي.

قام مؤمن وهو يصافحه بحرارة: ثم قال: بالطبع.

بقي الأب واقفًا، فقال مؤمن: يمكنك أن تعود إلى القاهرة، فأنا متأكد أن تلاميذك تنتظرك، ومرضاك في حاجة إليك. ابنتك في عيني أحافظ عليها كأختي الصغيرة .

ثم ابتسم ابتسامة مصطنعة في انتظار رحيل الأب. وعندما رحل نظر إلى الفتاة الجالسة وقال في جدية: محمود قال إنك كنت معنا في الجامعة تصغريننا ببضع سنين.

قالت في صوت هادئ: نعم يبدو هذا، ولكنني لا أتذكر.

-بالطبع. أنا أيضًا لا أتذكر، ولكن هو يتذكر.

نظرت إلى محمود الذي بدا أقل حدة من مؤمن، ثم ابتسمت وقالت: قلت إن زوجتك من هولندا؟

قال محمود في حماس: ستحبينها جدًّا. تعرف القليل من العربية وتتقن الطهي. نعيش معًا في بيت في البر الغربي. سأدعوك هناك قريبًا.

شكرته، واتجهت إلى مؤمن الذي كان يتفحصها، ثم سأل : لماذا تريدين العمل معنا هنا؟

قالت مسرعة وقد حفظت الإجابة عن هذا السؤال: لقد قرأت الكثير عن تاريخ مصر القديمة وكل معالم الأقصر، وأُعِدُّ رسالة ماجستير في الأدب الصيني، ذهبت إلى الصين في بعثة أيضًا، كل هذا مكتوب في السيرة الذاتية لو... قرأتها حضرتك؟

قال والحوار يستهويه: حضرتك؟

ثم صمت برهة، وأكمل وكأنه يتكلم مع نفسه: ماشي. ولماذا تريدين العمل هنا؟

قالت مسرعة: أحب الأقصر.

-زُرتِها من قبل؟

-لا.

نظر إليها وهو ينتظر بقية إجابتها، ولكنها لم تكمل.

فنظر إلى محمود وقال: علياء. اسمحي لي أن أناديك بعلياء. وتناديني بمؤمن.

هزت رأسها في حماس، فأكمل: والدك يخاف عليك. يبدو صعبًا. ما علينا. من أي نوع من الشخصيات أنت؟

-لا أفهم.

-مثلا محمود وقصة حبه مع زوجته الهولندية ليست حقيقية.

نظر إليه محمود في فزع، فقال له: محمود ستصبح جزءًا من فريق عملنا. لا بد أن نصارحها بالحقيقة.

ثم أكمل: محمود متزوج وزوجته في أسوان. سوزان زوجته الثانية تعرف هذا.الاثنتان تعرفان. علاقة رائعة من التوافق في المصالح. سوزان تكبره بثلاثين عامًا.

هل أراد أن يفزعها. بدا أنه نجح. أكمل في هدوء قبل أن ينطق محمود: ولكن محمود من أجدع الرجال والأصدقاء، ولدينا راقصة وشرب وأكثر. لا أحد هنا يتدخل في حياة الآخرين، ولكنني أعدك أنت سترين العالم كله في تلك الرحلة. فالعالم يأتي إلينا ولا نذهب إليه.

قالت في هدوء: أعتقد أن حضرتك تحاول التخلص مني، أرى ذلك.

-حضرتك تاني؟ ربما.

-لا يهمني ما يفعل الآخرون.

قال في شيء من الارتياح وهو يتجاهل نظرات صديقه اللائمة: المرشد السياحي يا علياء كالممثل والطبيب النفسي معًا. لا بد أن تفكري لماذا يأتي السائح إلى هنا؟ ليهرب ويستمتع. لا بد أن تفهمي من ماذا يهرب وكيف يريد أن يستمتع. أولًا لا بد أن تقنعيه أنك جزء لا يتجزأ من عمره الباقي. لا بد أن يطلب منك السائح عنوانك ويرحل بالدموع والأشواق وهو يراك
كأقرب صديق وأعز مرشد. وليفعل هذا لا بد أن ينسى أنه يدفع مقابل خدماتك .

-افهم ما تعنيه.

-عندما يسألك أسئلة لا تستطيعين الإجابة عنها فكري في مخرج لأنك العالم بكل الأشياء، وقبل كل شيء تفهمين لماذا أتى إلى مصر، هل جاء من أجل حلم قديم برؤية الأهرام؟ رحلة ترفيهيه وعد أب أبناءه بها؟ رحلة بحث عن الذات تقوم بها سيدة؟ جاسوس يريد جمع المعلومات؟ شاب يريد المغامرة؟ لكل سائح مدخل وزاوية. فهمها يجعل عملك أسهل

بكثير. مثلًا لو جاءتك شابة حالمة من بريطانيا تعشق الفراعنة وحضارتهم تكلمي معها عن مقبرة نفرتيتي التي لم يزل العالم يبحث عنها وأنها ربما تقع تحت قدميها، هي تعرف نفرتيتي، وستصدق كلماتك لأنك العالمة بكل الأمور. أنت المرشد فلا تخذلي سائحك بتحطيم أحلامه، ستبحث معك عن المقبرة بحماس طفل صغير. وإذا قابلت رجلًا فرنسيًّا جاء رغمًا عنه لأن زوجته أرغمته على ذلك فاحكي له عن تمثال رمسيس الثاني الذي صممه رمسيس بإشراف شخصي منه، ووضع زوجته بين قدميه لأنها ضئيلة بالنسبة له. وإذا وجدت طفلًا يرفع رأسه إلى قدس الأقداس في معبد الكرنك فتكلمي معه عن التنين الكبير والإله الشرير والآخر الطيب. للحقيقة زوايا مختلفة، وليس من واجبك أن تظهريها جميعًا، بل تظهري منها ما يريده السائح فقط. تفهمين؟

هزَّت رأسها فأكمل: بالنسبة للماديات، محمود سيأخذ عمولته ثم نتقاسم أنا وأنت الربح من السائح وكل ما يشتريه.

-يشتريه؟

-لك عمولة على كل محل تُدخلين فيه السائح بالطبع.

-آسفة لا أستطيع، هذا عمل غير أخلاقي.

نظر إلى محمود، فقال محمود مسرعًا: علياء، هذا بيع وشراء.

-ليدخل السائح المحل الذي يريده.

غمز محمود مؤمن الذي كان يوشك على الرد، ثم قال: لا بأس تلك تفاصيل نتكلم عنها لاحقًا. العمل هنا مربح حقًّا. صدقيني، ومع أزمة السائحين يتقاتل المرشدون على السائح، حظنا جميل هذا الشتاء.

قام مؤمن، مد يده، صافحها، وقال: مرحبًا بك في الأقصر.

* * *

بقي مؤمن واقفًا في استقبال كمال المنسي. شعر بألم في كبده من جديد. في أيام كهذه لا بد من خطف الفرص، فالمرشدون يتأهَّبون للولائم كالذئاب الجائعة، ولا بد من السيطرة على الألم.

كمال المنسي أغرب رجل قابله منذ بداية عمله كمرشد، وقد كان العالم يتكشف له مع كل شخص جديد يقابله، ولكن كمال المنسي غير كل الشخوص. منذ ثلاثة أعوام يستقبل مؤمن كمال المنسي في مطارات مصر كل ثلاثة أشهر، الأقصر، أسوان، الغردقة، مرسى علم، شرم الشيخ، العلمين، سوهاج. وكمال لا يستطيع العمل إلا مع مرشد واحد، مؤمن. حاول في الماضي قطع علاقته بمؤمن نهائيًا واتهمه بالمادية والفضول، صفتان لا يتحملهما كمال. بدأ التعامل مع مرشد آخر. ولم يتحمل أكثر من يومين. عاد إلى مؤمن نادمًا، وأعطاه ما يريد، ولكنه لم يجب عن أسئلته.

بل قال في امتعاض: عندما أستطيع السفر خارج مصر سأمسح رقمك من تليفوني للأبد، وأتعمد أن أتحاشاك بقية عمري.

قال مؤمن في تهكم: صعبت الوضع عليَّ يا كمال بيه. هل أتمنى أن تبقى في مصر إلى الأبد أم أن يسمح لك بالسفر خارجها وأفقد أنا مورد رزقي؟

كمال المنسي حالة خاصة وعشرة عمر. ولكن هذا لا يمنع أن العمل عبادة، وكما لا يمنع أن يكون مؤمن مستحقًّا هذا المبلغ، فربما يستطيع المرشد شرح معالم بلاده للغرباء، ولكنه لا يستطيع أن يشرح معالم بلاد الغرباء لأبناء بلاده هو. وهذا ما يطلبه كمال وباللغة الإنجليزية أيضًا، بل تفوق طلبات كمال كل الواقع والخيال مجتمعين، ويطلب من مؤمن أن يقنعه أنه خارج مصر.

فمنذ ثلاث سنوات مُنِعَ كمال من السفر لحين البت في قضيته، ومنذ ذلك الحين وكمال كالقط داخل صندوق مظلم بلا ماء أو هواء. أصيب باكتئاب شديد، وأصبح يخاف الناس والأماكن المغلقة، وكان قد اعتاد قضاء صيفه في أوروبا، وشتائه بين البلاد الكثيرة. شعر بأنه طائر قصوا أجنحته، وطلبوا منه الأمل في أن الغد سيبدله بأجنحة أخرى، ولكنه لا يدري
متى يأتي الغد، ولا من أين تأتي الأجنحة الأخرى. انتشله مؤمن من استسلامه للموت البطيء عندما قابله صدفة في رحلة نيلية إلى أسوان، ومنذ ذلك الحين وهو يطير بين المطارات داخل مصر، ويستنشق هواء مختلفًا، ويقنع نفسه بأنه سافر بعيدًا. وحلَّق في الهواء وخرج من دائرة السوء التي رسمتها له الدولة والساسة. أصبح يأخذ طائرة كل عدة أشهر من

مطار القاهرة، وينتظر في صالة الانتظار. ويقرأ شاشات المطار، ويحملق في المسافرين، فهذا مسافر إلى باريس، وهذا إلى دبي، وهو إلى الأقصر. يغمض عينيه ويتخيل حقائبه تنتقل إلى خارج الحدود. لم يكن يدرك معنى المكث بين زوايا سجنه ينتظر حكمًا ربما يودي به إلى سجن أصغر وأشرس من سجنه الآن. من يدري ربما يموت داخل سجن مظلم، وحتى الهواء المفعم برائحة مصر يمنع عنه. فحكم القضاء ربما ينهي محنته، وربما ينهي حياته، لا يدري.

يضع حقائبه وتختفي أمامه وهو ينتظر الطائرة. ولحظة الصعود إلى الطائرة دائمًا تلفح الرياح وجهه، ودائمًا يشعر بالحرية، ولحظة تحرك الطائرة ثم انطلاقها في الهواء هي لحظة الخلاص المؤقت، يتنفس نفسًا عميقًا، يغمض عينيه، ويضع غطاء العين ويتناسى اكتئابه وألمه، ودائمًا يكون مؤمن في انتظاره.

يبتسم له ويحمل حقيبته ثم يسأل: أين سنذهب في هذه الرحلة؟

فيختار كمال إحدى العواصم، ويبدأ مؤمن في الحكي عنها بالتفصيل، ويحاول إيجاد مطعم أو سوق تجارية مبهمة المعالم ليسير خلالها مع كمال ويتكلم معه بالإنجليزية عن العاصمة التي اختارها.

مرتب يوم مع كمال كان يكفي والدة مؤمن شهرًا كاملًا، ويكفيها الطلب من ابنها الكبير وتوبيخه لها على إسرافها.

كل هذا الجنون الذي يطلبه كمال كان مدفوع الأجر.

وكثيرًا ما فكر مؤمن في حال كمال، وكثيرًا ما توجَّه بالسؤال إلى صديقه سمير الضابط وإلى محمود عن جريمة كمال. لا بد أنه شديد الغنى؟ هل هو تاجر سلاح؟ هل هو مقاول أخذ أموال العملاء ولم يَبْنِ لهم الجنة التي وعدهم بها؟ سياسي ربما يريد قلب نظام الحكم؟ خائن وجاسوس ومُمَوَّل من الخارج؟ تاجر مخدرات؟

لم يجد مؤمن الإجابة، وكان ينتظر قدوم كمال في حماس.

أمسك بحقيبته، وقال بالإنجليزية: مرحبًا بك في مصر.

فقال كمال في حدة: لا أريد أن أسمع هذا الاسم.

-أين تريد الذهاب هذه المرة؟

-هذه المرة لا أدري. جولة داخل أوروبا؟

قال مؤمن في إصرار: بالطبع، ولكننا اتفقنا على بلد واحد. جولة داخل أوروبا بثلاثة آلاف في اليوم.

فتح كمال فمه، فقال مؤمن مسرعًا: آخذك إلى روسيا بنصف الثمن!

* * *

هذا اليوم لا يريد أن ينتهي. لا بد أن يفكر في أفضل الطرق للانتقام من أمير عابدين. لديه الكثير من الأصدقاء، ربما لو دق رأس أمير بعصا سميكة فسيرتاح، وربما يفعل أكثر ليلقن أمير درسًا يسكته إلى الأبد. ولكن لا بد أن يفكر قليلًا. وهذا الألم في كبده يتلاشى أحيانًا ويعود من جديد. ما يحتاج إليه حقًّا هو ذراعي جوانا. اليوم بالذات يحتاجهما، ولكنها لا تحب
أن يفاجئها أحد بتدفق المشاعر والقبلات الغزيرة، وتحب دائمًا أن تسيطر على الموقف من جميع اتجاهاته.

كان المركب النيليّ مكوَّنًا من دورين: دور أول للسائحين، والثاني لمن يعمل معهم، وكان معظم عمله الحالي مرشدًا خاصًّا؛ فالسائحون هذه الأيام قلائل كقلة العملة الصعبة وغبطة الفتيات. أيام صعبة. في مركبه الآن عائلة ألمانية، وإيريكا الأمريكية التي يطلق عليها الجميع الجاسوسة، وكمال المنسي. كلهم في الدور السفلي. في الدور العلوي الراقصة الروسية
جوانا، والمرشدة الجديدة علياء في الحجرة المجاورة، وحجرته هو. اتصل بجوانا، وهمس لها بأنه يشتاق إليها. صمتت لحظات وقالت: تعال... أفتقدك يا مؤمن.

من حظه التعس أن اسمه يستعصي نطقه على كل السائحين.

فتح باب حجرته ليتجه لحجرتها، كان يرتدي بنطلونه الجينز فقط. نظر إليه محمود وهو في طريقه للمغادرة، وقال: يا بختك. دائمًا حظك أفضل من حظي.

-لم أبن بيتًا في البر الغربي، ولم أتزوج اثنتين!

-خذهما معًا وأعطني جوانا. لم أر مَنْ في جمالها. ناصعة البياض. وقوامها...يا إلهي؟ هذا ليس عدلًا.

ربَّت مؤمن على كتفه، وقال وهو يدق على باب جوانا: اذهب لزوجتك. طبخت لك اليوم.

طلبت منه جوانا أن يفتح بمفتاحه. فتح باب الغرفة بمفتاحه، وأغلق الباب في وجه صديقه، واتجه إلى ذراعي جوانا وهو يهمس: كيف حالك اليوم؟

قالت بعربيتها الركيكة: تكلم معي بالعربية فقط. لا بد أن أتقنها. العمل أصبح نادرًا ولا بد من الاعتماد على السائحين المصريين .

استلقى على سريرها وقال : أعرف. أعاني نفس الشيء.

ألقت بنفسها بين ذراعيه، وقالت وهو يجذبها إليه ويلصق جسده بجسدها وهي ما زالت المسيطرة المتحكمة تقرر متى تقبله وأين تلمسه: أنت صديقي الوحيد. الوحيد الذي لا يطمع فيَّ ولا يؤذيني. لم يتصل خطيبي اليوم. لا يتصل بي إلا إذا احتاج المال. أفتقده وأغضب منه، وأشعر بالكثير من الوحدة، هل لا بد لي من العودة إلى روسيا؟

جوانا كانت حالة خاصة، ومؤمن على يقين بأن أحدًا اغتصبها يومًا ما. كانت تريد السيطرة على شهوة الرجل، وتخاف الرجال وتعشقهم. لا يعرف الكثير عن ماضيها، ولكنه عندما كان يمارس الحب معها تريح جسدها على جسده، وتمسك بزمام الأمور وتعشقه كما تريد وكما تتطلب نشوتها. وكان يشتاق لها دائمًا. بدا له أنها هاربة من شيء ما في خلجات نفسها، وربما من خطيبها وعمرها. من وحدة تطفو عليها بين جليد العمر. فهي كالكثير من عملائه تتوق للمستحيل وتبحث عنه بين رفات الماضي السحيق.

هي كالكثيرين، تائهة في عالم تتمدد فيه الحقيقة بين زوايا مختبئة في أعماق النهر الطويل العميق. وبدا لمؤمن أن خطيبها يستغلها إلى أسوأ الحدود، وأنه يأخذ كل أموالها، وربما يضربها أيضًا، قالت هذا مرة أو مرتين. كثيرًا ما فكر مؤمن في أن يسألها ما إذا كان خطيبها يغتصبها، ولكنه لم يكن يريد أن يجازف بالصداقة المستمرة بينهما. هي تقابل خطيبها فقط في إجازة الصيف عندما تغتصبها شمس الأقصر بلا إنذار. تقرر حينئذ الرحيل. شتاء الأقصر يحميها من الصقيع، وصيف الأقصر يحرق وجدانها ويذكرها بالعجز.

الرائع في جوانا بالإضافة إلى رقصها المصري، وجمالها الصارخ، وصدرها الكبير كبر قرص الشمس، وعينيها الزرقاوين، وشعرها الأسود الداكن الذي يعطي إحساسًا للرجال بأنها جنية من نار، وأن الحب بين ذراعيها لا يخضع لقواعد الكون وتدابير البشر، الرائع فيها هو تفهمها وحريتها وتقديرها الصحيح للأمور. فجوانا لا تعتقد أن ممارسة الجنس مع مؤمن خيانة لخطيبها على الإطلاق، فهي ترتدي دبلته، وهو يسكن داخل أعماق قلبها، ألا يكفيه هذا؟ أما الجسد فخارج كل القوانين يملي قواعده واحتياجاته، والروح تحتاج صداقة ملموسة متجسدة وليس فراغًا ووحدة وغربة كاملة.

تمنى مؤمن كثيرًا أن يسألها عن هذه الفكرة التي طغت عليه بأن أحدًا اغتصبها يومًا ما. هل كان هذا في بلادها أم في مصر؟ هل كانت تبيع الهوى واستغلها أحدهم وكان عنيفًا معها أكثر مما تتحمل؟ هل هذه أوهام بداخله؟

تعلَّم أن يكبح فضوله ويأخذ من الدنيا ما تلقي إليه في صمت، لا يسأل ولا يحكم. أحيانًا يغتاظ من هذا الخطيب المستغل الأفاك، ولكنها تعشقه بطريقتها. وعندما يتصل بها الخطيب تلمع عيناها وتبدو الفرحة على وجهها.

قبلت فمه قبلة طويلة، ومارس الحب معها، ثم قامت وارتدت فستانًا جديدًا أحمر، ونظرت في المرآة وقالت: ما رأيك؟

قال وهو يريح رأسه على الوسادة: أنت جميلة به أو بدونه.

قالت من جديد: الأحمر يليق بي؟ أم يجعلني أبدو كالشبح؟

ابتسم: كل الألوان تليق بك.

اقتربت وجلست بجانبه وهمست بالإنجليزية: إياك أن تحبني.

-أحبك الكثيرون.

بدأت كعادتها تحكي له بالإنجليزية عن قريتها ووالديها وحياتها وما تفتقده من طعام، وعن الثلوج البيضاء والفقر المدقع في قريتها، والبحيرات الشاسعة وكان يستمع في حماس. همست فجأة وهي تداعب رقبته بيدها: هل أحببت يومًا؟ حبًّا حقيقيًّا كحبي لخطيبي؟

صمت لحظات ثم قال: أمي تريدني أن أتزوج من عائلتي؛ فلم الغرباء وبنات العائلة في الانتظار؟ وكأنني أفتح مركز خدمات للعائلة. سأتزوج بالطبع من تختارها أمي. أعرف وأؤجل اليوم قدر استطاعتي، ولكن عندما يزيد ضغط أخي على أمي سأنقذها من الصبر على لومه يومًا ما .

صمت لحظات ثم أكمل: في بلادنا يا جوانا لكل رجل ثلاث نساء. امرأة يريدها، وامرأة يتزوجها، وامرأة يحبها.

قالت في حيرة: ولم لا تكون نفس المرأة، يحبها ويريدها ويتزوجها؟

-هذا مستحيل.

-ولم لا؟

-لم لا؟ لأن الزواج قرار سياسي في بلادنا، ليس للشعب رأي فيه، الساسة يعرفون أكثر، ولأن الحب يفتت القلوب بلا استئذان، ولا ينتظر القبول والرضا، ولأن اشتهاء المرأة فن يتقنه معظم الرجال، والحب فن لا يتقنه إلا القليل.

قالت في فضول: وأنت أحببت إذًا؟

-أحببت. نعم بالطبع. كل شبابنا هنا أحبَّ حبًّا بلا أمل. دائمًا لا بد للحب أن يكون مستحيلًا ليعيش في أعماق النفس.

-لِمَ مستحيل؟ كانت متزوجة؟ لم تبادلك المشاعر؟ رفضها أهلك؟

-الحب غير الاشتهاء وغير الزواج. للحب رهبة تشبه رهبة الموت، هو ليس كروتين الحياة اليومي، لا بد ألا تتكلمي عنه وألا تحاولي فهمه، ولكنه موجود لا محالة .

قالت في مرارة: أعرف. موجود لا محالة. ثم أمسكت بكتاب صغير، وجلست بجانبه، وقالت في دلال: والآن تعلمني العربية، وتستمع لي وأنا أتكلم .

همس في أذنيها بالعربية: وما أجري على هذا؟

ضحكت وقالت: أعرف تتحمل نطقي الفظيع وبطئي، ولكنني أتعلم سريعًا.

قال وهو يمسك الكتاب: تتعلمين سريعًا جدًّا. ستتقنين العربية أكثر مني.

عندما خرج من غرفتها متسللًا ليلًا سمع شهقات من غرفة مجاورة. اتجه إلى باب الغرفة، ووضع أذنه على الباب: كانت علياء تبكي بكاء صامتًا على ما يبدو وتشهق من حين إلى حين. نظر من ثقب الباب..رآها تجلس على سريرها وفي يدها علبة دواء أخذت منه حبتين، ثم اختفى رأسها.

* * *

قال مؤمن في تذمر لصديقه: قلت لك إن هذه الفتاة لا تصلح. سمعتها تبكي ليلًا. كيف ستتحمل ضغط العمل هنا؟ مرفهة ومدللة. لا تروق لي على الإطلاق.

قال محمود في رفق: اصبر. ستتعلم. والدتها ماتت منذ شهرين على ما أعتقد. إنها أصلح مرشدة؛ لأنها تعمل كهواية ولا تحتاج المال، فلن تفاصل معنا ولن تزعجنا.

ولكن تعليم علياء لم يكن سهلًا.

كانت هي ومؤمن في استقبال زوجين من أستراليا، يان وجيمس. فهمت علياء في المطار لماذا تحتاج الزوجة إلى مرشد صيني؛ فقد كان أصلها صينيًّا، ومع أنها تتقن الإنجليزية، وعاشت ثلاثين عامًا في أستراليا، شعرت في رحلة العمر أنها تحتاج إلى من يتكلم لغتها الأم. فـ «يان» قصة وحياة، تغير مجرى التاريخ بأفعالها وشخصيتها. كانت جميلة ولكنها فقدت أخيرًا ساقها اليمنى كاملة في حادث أو مرض لا أحد يعرف بالضبط. يان هربت من الصين بعد سجن والديها لانتمائها لتنظيم محظور، وكانت حينذاك في الثامنة عشرة، وفي أستراليا عاشت في البداية كلاجئة ضعيفة، وتعرفت على زوجها الذي يكبرها بعشرة أعوام في مخيم للاجئين كان يتطوع في التدريس فيه. أحبها جيمس حبًّا لا يوصف. تزوجها وعاشا معًا

ثلاثين عامًا أو أكثر. لم ينجبا، ولكن حب الزوج وعطاءه المستمر عوضاها عن الولد والوطن، وجعلها أسعد سيدة. حكى الزوج لعلياء القصة في دقائق، وكيف أن زوجته قد وجدت طعمًا جديدًا للحياة في أستراليا، وطعمًا للحرية والرفاهية بعيدًا عن الفقر والسجن والحرمان في الصين. كانت قصة رائعة، فيها كفاح وسياسة ورأس مال، وامرأة تصنع لنفسها مستقبلًا أفضل وتسعد الجميع. أما حكاية يان مع مصر فبدأت منذ القدم، ولن تنتهي أبدًا. في كتاب المدرسة سمعت عن مصر، وضعت إصبعها الصغيرة ناحية الأهرام في الصورة الرديئة الباهتة، وهمست: أريد أن أذهب إلى هذا العالم.

هكذا أطلقت على مصر.

»هذا العالم.» ومنذ ذلك الحين والأمل موجود، ألهتها حياتها حتى فاجأها زوجها الحبيب بالرحلة، بكت وشكرته، وطلبت أن تبقى شهرًا في مصر، أيامًا حول الأهرام، وأسابيع بين جدار التاريخ وقصصه. وافق زوجها وأخذ إجازة طويلة من عمله في شركته، وتركت هي المدرسة التي فتحتها للأطفال، وذهبا إلى مصر، ولكنها طلبت منه في خجل أن يكون مرشدها متحدثًا للصينية؛ فعالم مصر بدأ في طفولتها، ولن تفهمه بلغة أخرى. وافق الزوج على الفور. وظهرت علياء في الأفق.

ولكن تعليم علياء لم يكن سهلًا.

في اليوم الأول طلب مؤمن من علياء شراء التذاكر لدخول مقابر وادي الملوك، وانتظر نصف ساعة وهي تقف في صبر في الطابور الطويل، ولا تحاول اختراقه أو الصياح من خلف الناس أمامها. كانت تنتظر كالأمراء من يأتي ليعطيها ما تحتاج. انتظر السائحون في الشمس نصف ساعة، ثم ذهب مؤمن مسرعًا إلى شباك التذاكر، صافح الرجل، تكلم معه كأنه يعرفه
منذ زمن، وأعطاها التذاكر في يدها لتوزعها. وزعتها في ارتباك وهي تعيد عد السائحين على الأقل خمس مرات.

بعد زيارات المقابر اشترى لها قبعة، وبدأت تقرأ في كتاب صغير في يدها طوال الوقت وهي تشرح ليان بالصينية. مد يده بالقبعة، أخذتها ونسيت أن ترتديها، ولم تمر ساعة إلا وهي تشعر بالغثيان، ثم تقيأت، وكادت تفقد الوعي، والكل يبحث عن الماء والبسكويت وأي طعام لها.

همس لمحمود: خذها للمركب، واترك لي الفوج اليوم.

في اليوم التالي ارتدت القبعة، وأخذت معها الكثير من المياه، وشربت وشربت وحاولت شراء تذاكر دخول وادي الملكات، ونجحت في ذلك، ولم تمر ساعتان إلا وهي تحتاج إلى دخول الحمام. ولكن الحمام العمومي سيخدش حياءها على كل المستويات. قال مؤمن لمحمود في يأس: أعدها إلى المركب.

كان اليوم الثالث أفضل كثيرًا. تعرفت علياء على كل سائحي المركب عدا كمال فقد كان نائمًا. سألت مؤمن على استحياء لماذا يطلق الجميع على إيريكا اسم «جاسوسة»، فأجاب مؤمن: لأنها أمريكية تعيش في الأقصر بلا أدنى سبب، لا هي تزوجت مصريًّا في البر الغربي، ولا هي عملت في شركات السياحة، دائمًا تجدينها مع كل فوج، تتعلق برقبة كل من تجد، وتسأل الكثير من الأسئلة غير المريحة عن الدين والسياسية والحقوق والإرهاب، ولكننا اعتدنا عليها، وتعايشنا معها، فهي عشرة عمر. فقط لا بد أن تحترسي في إجاباتك، وتبقيها خارج نطاق الحقيقة. دائمًا تبقى إيريكا في الجهل الممتع والتفاصيل المجهدة؛ فهي تعشق التفاصيل. آه وشيء آخر جعلنا نتأكد من أنها جاسوسة؛ فهي لا تسمح لأحد بدخول حجرتها
أبدًا. ولها مفتاح خاص وقفل من الخارج صنع في أمريكا.

إيريكا كانت في حوالي الستين من عمرها، تضحك كثيرًا، وتبدو وكأنها لا تركز في أي شيء أكثر من ثلاث دقائق. ولكن علياء أحبت روحها المتفائلة.

استمرت علياء في ترجمة ما يقوله مؤمن في الجولات السياحية، ولاحظت أداءه التمثيلي المتقن، كان يسير في المقدمة، وما إن يصل إلى المعبد حتى يفتح ذراعيه ليتأكد من وجود الجميع، وكأنه يسيطر على حدود التاريخ، ويقول في حماس: انظروا إلى الجدران! هنا صنع المصريون كل شيء: الحب والموت والشر والخير على تلك الجدران حيث نرى عظمة التاريخ.

ثم يتوقف في استراحة قصيرة أمام محل بعينه، ويزكي المحل لهم، ويتركهم وكأنه لا يعرف عن صاحب المحل أي شيء. وكان يرشدهم إلى محلات البخور، ويتوقف عند ألوان البهارات الصارخة والملوخية الخضراء، ويشجعهم على الشراء، والسائحون مبهورون بكل الألوان الكثيفة الصارخة. كانت أعينهم مذهولة، وفمهم مفتوحًا ورءوسهم تنظر في كل اتجاه.
وبعد الرحلة الطويلة قال في حماس: الآن نذهب إلى مكان مفاجأة. هدية إليكم جميعًا؛ فأنتم أصدقاء وإخوة، سنذهب إلى بيتي نزور أمي في البر الغربي.

سمع الترحيب والحماس في تأوهاتهم المذهولة من كل هذا الكرم. اتجه بهم إلى مركب شراعي في سرعة وحرفية، صافح صاحب المركب بحرارة، وكأنه يعرفه منذ أعوام، وسار المركب وسط فرحة الجميع، وعلياء تنظر إليه في صمت. عندما وصلوا إلى جزيرة صغيرة خرجوا جميعًا من المركب في انتظار البيت المصري الأصيل ومقابلة الأهل والأقارب. وكان بيتًا رائعًا.
زاغ البصر على الألوان: الأخضر والأحمر والأزرق والأصفر. غطت الرسومات البيت الطيني وفناءه الواسع المزين بفرن بلدي وبرج حمام وحظيرة من القش لبعض الغنم.

حتى علياء وجدته أجمل بيت رأته عيناها، ليت بيتها في القاهرة بهذا الجمال.

طلب منهم الدخول، ثم قال في جدية: أذهبُ لأغيّر ملابسي؛ فأمي لا تتقبل رؤيتي ببنطلون وقميص.

بقوا كلهم في انتظاره وانتظار أمه في شوق ورهبة، وإيريكا تمسك قلبها، مع أنها جاءت إلى هنا من قبل. عاد بعد قليل وهو يرتدي جلبابًا أبيض بأكمام فضفاضة وعمامة بيضاء، شهقت إيريكا وهمست لعلياء: انظري إلى وجهه الأسمر وجلبابه الأبيض. لو كنت في شبابي كنت أقبله الآن، وسيم إلى أبعد حد، ووسيم أكثر إذا ارتدى ملابسه الحقيقية.

لم تجب علياء، كان كل المشهد جديدًا عليها. أدخلهم إلى صحن البيت، وجلسوا على الأرائك الملونة بكل الألوان الزاهية، ونظروا إلى الألواح على الحائط لبنات بلبس نوبي وحلقان كبيرة ووجوه سوداء جميلة.

همست إيريكا: أنا متأكدة من أن هذه الفتاة في اللوحات أخته. لا بد أن شكلها هكذا. ما رأيك يا علياء؟

قالت علياء: لا أظن هذا. تبدو لوحات لفنان، رسام معروف ولِمَ يرسم الفنان أخت مؤمن؟

بدأ مؤمن يشرح لهم كيف تخبز أمه الخبز كل يوم، وتصنع الجبن والطعام بنفسها. وكيف تنسج كل الألوان في طواقٍ وعمامات، وكيف تنسج وشاحها بيدها من كل الألوان الزاهية التي تعكسها شمس الأقصر بوضوح.

بعد دقائق دخلت أمه ترتدي جلبابًا أسود، وشعرها في ضفيرتين على كتفيها، شعر أحمر بلون الحناء، والوشاح على شعرها أسود مزين بألوان مختلفة على الأطراف. الوشم يزين ذقنها ويديها المجعدتين من الزمن والأيام. كانت شديدة السمرة، ووجهها جميل وعليه علامات الطيبة، وكان معها سلَّة تضع فيها كل ما صنعت، وعلى رأسها صينية تحملها في

توازن مطلق، بها أكواب من الشاي. شهق الجميع. همست يان باللغة الصينية لعلياء: هذه رحلة العمر، وهذه هي مصر التي أعرفها.

لم تتكلم الأم كثيرًا، وضعت الشاي، وطلب منهم مؤمن أن يشربوا الشاي كالصعايدة بأربع ملاعق سكر على الأقل. ثم فتحت الأم السلَّة الكبيرة وأخرجت أشياء مختلفة: أقمشة، تماثيل، سجاجيد صغيرة، جلابيب، وهمست بعربية صعيدية: أنا صنعت كل هذه الأشياء .

وسط تمتمات السائحين، وفرزهم للأشياء كما يفرز الطفل هدايا عيد الميلاد، كانت علياء تنظر إلى البيت في تركيز، وتخيلت البيت كبيت الأقزام السبعة بعد مجيء سنووايت،؛ فهو بيت مريح ودافئ ونظيف، وكأن أحدًا لم يسكن فيه قط، كأنه مصمم لقصص الأساطير وروايات الرحالة.

بقيت علياء صامتة، وبدا عليها عدم الارتياح. انتهى السائحون من شرب الشاي وشراء الهدايا. لم تطلب أم مؤمن أي ثمن، بل تركتهم يدفعون ما يريدون. كانت كريمة وبنت أصل ككل الجنوبيين.

قالت إيريكا لعلياء: هذه رحلة العمر؛ لهذا لا أريد ترك الأقصر. يأخذني مؤمن إلى هذا المكان مرتين في الشهر تقريبًا. انظري إلى الذوق والبساطة والحياة البرية البدائية المريحة. هكذا لا بد أن نحيا جميعًا هنا في هذا البيت. نُعِدُّ اللبن، ونغزل السجاجيد، ويشع الأمل بيننا.

بعد أن فتح مؤمن سرداب الزمان على حقائق جديدة لا تراها العين المجردة، وبعد نشوة الحاضرين وحنينهم إلى الالتحام مع الطبيعة، وترك المدن والحضارات وراءهم، عادوا جميعًا على المركب الفندقي، ينتظرون العشاء، وهم على يقين بأن اليوم أفضل يوم في حياتهم الماضية والقادمة، بل من حظهم السعيد أن مؤمن بقي مرتديًا جلبابه الأبيض طوال
الطريق وعلى العشاء أيضًا. وعند وقت النوم سمع الكثير من الامتنان من كل الموجودين عدا علياء؛ فقد بقيت صامتة طوال الوقت.

رأته يتجه إلى حجرته، فقالت في هدوء: أستاذ مؤمن؟

نظر إليها في تعجب ثم قال : أستاذ؟! وحضرتك؟! وكل هذه الكلمات؟!

قالت في شيء من القوة : هل يمكن أن أتكلم معك دقائق؟

قال وهو يتجه إلى حافة المركب: بالطبع. اجلسي هنا بجانبي.

ترددت قليلًا ثم جلست على حافة المركب معه وساقاها في الهواء والنهر تحتها مظلم وعميق. وكان الحاجز مكسورًا عند زاوية المركب.

قال مسرعًا: تعرفين كسرت هذا الحاجز عمدًا في المركب حتى أجلس على حافة النهر، لا أحب الحواجز بيني وبين النهر. الحواجز تصنعها العين لأنها لا ترى الأفق وتخاف المجهول، محدودة أعيننا، ما رأيك؟

قالت في هدوء: آسفة لا أفهم. أعتقد..أنني لا أحب العمل هنا، أعني بهذه الطريقة.

نظر إليها منتظرًا أن تكمل، فقالت: توقعت أن أعمل مرشدة فقط، ولا أدلُّ السائحين على أفضل المحلات، ولا أذهب بهم إلى بيت عائلتي. هي علاقة عمل فقط و...

صمتت وهي لا تعرف هل تقول ما في بالها أم لا، فقال: أكملي؟

قالت في بطء: يساورني الشك. اعذرني. بل أنا متأكدة. أعني. هذا ليس بيتك وهذه ليست أمك.

صَفَّرَ في ذهول مصطنع ثم قال: هذا اكتشاف خطير.

-هي الحقيقة إذن؟ بيت تؤجره، وامرأة تؤجرها و... لا أصدق. لم الخداع؟

-بالطبع هذا ليس بيتي، وهذه ليست أمي. علياء، سائح يعبر المحيطات كلها، ويبحر أيامًا ليأتي إلى هنا، لماذا؟ ليرى وجهًا آخر لبلاده، ليرى بيتك وملابسك وكليتك وسيارتك، ويعرف أن الاختلاف بين مصر وغيرها من البلاد طفيف، وأن البشر سواء، وأن البدائية فكرة يمليها علينا عقلنا المسجون وسط حقائق تعلمناها من الساسة. عندما يأتي السائح دافعًا ما
يملك لا بد أن أجعل رحلته هي رحلة العمر. ضميري يحتم عليَّ هذا.

-أن تكذب؟ آسفة، اعذرني. لا أحب الكذب.

-وأنا أيضًا .

ساد الصمت، ثم قالت: هل يمكن أن تغير طريقتك حتى تنتهي مهمتنا.

قال في حسم: لا. تأتين هنا لتتعلمي لا لتعلميني. تريدين العودة إلى القاهرة، لا مشكلة عندي. أنا لا آخذ شيئًا من أحد عنوة، هذا اتفاق بيني وبين السائح، أنا أعطيه ما يريد، وهو يعطيني ما أريد.

صمتت لحظات ثم قالت: منطق غريب عليَّ. منطق البيع والشراء. ترى أهذا منطق محمود أيضًا في الزواج ممن تكبره؟ عملية تجارية يبيع فيها الجميع الضمائر و النفوس؟ لا أقبل هذا أنا آسفة.

لا بد أنها أغضبته في نهاية هذا اليوم الناجح، قال في حدة: تقبلين؟ من أنت لتقبلي وتحكمي؟ أنت تعملين تحت رئاستي هنا. أتمنى ألا تنسي. وللأسف ليس كل البشر بغنى والدك ليفكروا بهذه الرفاهية.

قالت في صوت منخفض: الأخلاق ليست رفاهية.

-أخلاق؟ هل تظنين أننا لا نملك أخلاقًا؟ هذا عملي أتقنه، ولا أخدع، ولا أكذب. علياء لا يستهويني هذا الحديث، وكان يومًا طويلًا. فكري حتى الصباح، وقرري الرحيل أو البقاء.

قالت مسرعة: لا لن أرحل.

نظر إليها في سخط. كانت تهدده منذ لحظات. قالت في رفق: أنا آسفة. لا أريد الحكم على أحد. سامحني، حقًّا أحيانًا تخرج مني كلمات لا أقصدها، ولكنني أريد أن أطلب منك شيئًا واحدًا.

أذهله اعتذارها. ولم يتوقعه. بقي صامتًا، فأكملت: لا أريد أن أكون جزءًا من هذه اللعبة، أقصد الصفقة. أعني عندما أخرج مع يان أتمنى ألا نذهب إلى محلات ولا نشتري شيئًا، وألا نزور والدتك المزيفة. هل يمكن أن تفعل هذا في أيام إجازتي؟ أتمنى هذا.

صمت لحظات ثم قال: أوافق.

ابتسمت في ارتياح ثم قالت: تصبح على خير.

هزَّ رأسه، وهو لم يزل يشعر بنار من كلماتها. تكلِّمه عن الأخلاق والضمير. كأخيه تمامًا. وأخوه سيرة تاريخية لا يود أن يحكيها ولا يتذكرها. أخوه هو كل النبل والأخلاق والكرامة واليقين.

* * *

كان اتفاقهما اتفاقًا مريحًا للطرفين، وتحاشى كل منهما الآخر، ولم يتكلم معها إلا عندما رن هاتفها مرة أو مرتين في نفس الساعة وهي تخفض الصوت ولا تغلق الهاتف. قال في صرامة: اغلقي الهاتف وقت العمل إذا سمحت.

هزَّت رأسها بالإيجاب ثم أغلقته، ولكنها كانت تنسى إغلاقه أحيانًا، وتنظر إلى الرقم الذي يطلبها، ثم تخفض الصوت ولا تجيب. كان يحدث هذا كل يوم غالبًا، وأحيانًا يطلبها والدها فترد عليه في إجابات مقتضبة، وتؤكد له أنها بخير وسعيدة هنا.

بدا أن كل شيء يسير على ما يرام، حتى قررت علياء فجأة العودة إلى المركب وسط الرحلة بلا إبداء أسباب. في المركب أغلقت بابها بقية اليوم، ومؤمن يتمتم بجميع الشتائم التي يعرفها والتي تعلمها من الأجانب. قال لمحمود: حتخرب بيتنا! هل حدث شيء؟ أي شيء حَدَثَ لتحبس نفسها في غرفتها؟

قال محمود مسرعًا: لا أعرف.

دقَّ على غرفتها ليلًا قائلًا: علياء.

فأجابت بصوت متحشرج: نعم.

-أنت بخير؟ ألن تأكلي؟

قالت في اقتضاب: شكرًا.

فقال في عدم صبر: غدًا لا بد أن تكوني في حال أفضل؛ فالسائح يدفع كل ما ادخر ليزور مصر ويتوقع أداءً أفضل من ذلك. ضعي مشكلاتك الشخصية جانبًا وقت العمل من فضلك.

لم تفتح الباب، ولم تبد لبرهة أنها سمعته. فقال من جديد: تسمعينني؟

قالت: نعم. سأكون جاهزة في الصباح.

نفخ في غيظ، وتركها. في الصباح دق على باب حجرتها، فخرجت بعد لحظات، وقالت في جدة وهي تمشي بجانبه: أنا آسفة. لم أقصد أن أبدو غير مكترثة بالعمل. أنا أعتبر العمل مُهِمًّا جدًّا وأحترمه وأقدِّره اعذرني. كنت مريضة بعض الشيء.

هزَّ رأسه، وقال وهو يسير معها خارج المركب: لا بأس .

-أين نحن ذاهبان؟ ألن ننتظر يان وزوجها؟

-لا. لا بد أن نجهز لحفلة الغد. نشتري بعض المأكولات والملابس. وأريدك معي .

سارا معًا في صمت حتى قالت هي: أين نذهب؟

لم ينظر إليها، قال في تلقائية: نفطر أولًا.

ثم نظر إليها من رأسها إلى قدميها، وكأنه يشتري خروفًا للعيد، وقال: أنت لا تأكلين على الإطلاق، أليس كذلك؟

فاجأها بالسؤال وبطريقة كلامه المباشرة وبنظرته ولم تعرف بماذا تجيب .

أكمل وكأنه لا يتوقع منها إجابة: لا يعجبك طعام المركب؟ أفكر بأن نُعِدَّ طعامًا مصريًّا للسائحين، ما رأيك؟

قالت وهي تتهرب من الأسئلة الشخصية: فكرة جميلة.

توقف عند مطعم، وقال: نجرب الأكل هنا أولًا ثم نقرر. علياء اجلسي.

جلست وبدا المكان مختلفًا عن أي مكان زارته في القاهرة، ولم تكن تتصور أن تجلس في مكان كهذا من قبل. وأزعجها مستوى النظافة وشكل المطبخ وشكل الطباخين، وكأنه قرأ أفكارها قال مسرعًا: لا تفكري في الأمر. كلي وأنت تفكرين في الطعام فقط .

كانت تشعر بالخجل، ولم تكن تريد أن تغضبه من جديد، فحاولت أن تأكل وهو يتأملها، ثم قال: إذا لم يعجبك الطعام فلن يعجب السائحين؟

-تظن أنني سائحة؟

-نعم في الأقصر على الأقل. أعجبك؟

-لم أعتده.

-تعرفينه؟

-بالطبع.

-سألتك إذا كان يعجبك وليس إذا اعتدته؟

بدأت تأكل في بطء وقالت: يعجبني.

أراح ظهره على المقعد، ثم قال: إذن سأنتظر حتى تنتهي من الأكل. كل الأكل، ثم نشتري للسائحين بعض الفطير والعسل الأسود، ما رأيك؟

فقالت في ارتباك وطريقته معها لا تريحها: لا أستطيع أن آكل كل هذا.

فقال في ثقة: بالطبع تستطيعين. إذا كان عملك سيتوقف على هذا.

-معذرة؟ لا أفهم.

-تأكلين فطورك تستمرين معي في العمل. لا تأكلين تعودين إلى القاهرة اليوم. علياء! لا أستطيع أن أخسر عملائي ويومًا آخر تتخلفين عن العمل أخسرهم. أنا لا أعرف ما يدور في حياتك، ولا أعرف شيئًا عن مشكلاتك، ولكني أستطيع أن أرى أنك لا تأكلين، وأنك تمرين بأزمة ما. لا تحكي لي عنها لأنها لا تعنيني، ولكن عملي يعنيني. تأكلين وتبتسمين وتطيعين كل أوامري وقت العمل.

لم تجب. احمرت وجنتاها، وكانت غاضبة من طريقته وكلامه وتهديده. اعتذرت عن اليوم.. لماذا يريد إذلالها؟ ربما كان من الأفضل لها أن تترك هذا المكان.

بقيت صامتة لحظات، ثم بدأت تأكل في بطء وهو ينظر إليها بلا كلمة.

قالت بعد أن انتهت من الأكل: أعتقد أنني أقوم بعملي بكل ضمير، وأعتقد أن الأكل ليس جزءًا من العمل.

قال وهو يبتسم: أترين؟ لا فتوجد مشكلة. عندما تأكلين تنتهي كل المشكلات، هكذا تقول أمي دائمًا.

كانت تنوي المشاجرة معه وترك العمل، وها هو ذا يمزح وكأنه لم يهددها منذ لحظات.

قالت في إصرار: كنت أقول إنني أقوم بعملي بضمير.

قال مسرعًا وهو يدفع الفاتورة ويقوم: أعرف. أشكرك على هذا.

ثم سار بجانبها وقال: هناك مطعم آخر أفضل بكثير سآتي لك بالغداء منه. آكل فيه مع محمود كل يوم. سيعجبك.

لم تجب. كانت لا تزال حانقة عليه بعد تهديده إياها.

قال فجأة: لا تحتاجين هذا العمل، ولكنك تريدينه، وتبذلين فيه مجهودًا كبيرًا. أعرف وأشكرك. ولكنني لا أعرف سبب هربك.

- هربي ؟!

-من يأتي هنا يأتي هاربًا من شيء أو كي يلتئم من جرح ما.

- أو يريد أن يرى آثار بلاده.

-هذا أيضًا، ولكن من يأتي ليرى آثار بلده يبقى أسبوعًا وليس شهورًا. لا بأس. لا أريد أن أعرف. في الحفل غدًا أتمنى أن تعطي وجهًا مشرقًا لمصر. تضعين الكحل والحناء إن استطعت. جوانا يمكن أن تساعدك فهي تجيد وضع الاثنين. تذكري، أنت وجه مصر بالنسبة للسائحين. أليست مصر دائمًا امرأة في العشرينيات مثلك؟ أريدك أن تكوني مصر. ما رأيك: كيف تبدو مصر لو كانت امرأة؟
ابتسمت ولم تجب.

فأكمل: مصر سترتدي جلبابًا فرعونيًا بالتأكيد. وتضع تاجًا على رأسها .

دخل محل الجلابيب، واشترى لها جلبابًا وقال: سأخصم ثمنه من مرتبك، لا تقلقي.

سارا وسط المحلات، لم يكن يتكلم كثيرًا، ثم توقف عند محل صاغة ودخل، تكلم مع الرجل بلهجة صعيدية، وأعطاه الرجل خاتمًا في علبة خضراء، فأخذه وأعطاه لعلياء في ميكانيكية، أخذته في استغراب، ونظرت للعلبة وهي لا تدري ماذا تفعل بها .

قال فجأة: أعتقد أننا سنصبح أصدقاء. أتمنى هذا .

كانت تود أن تقول إن هذا مستحيل، ما دام هو يأمرها ويهددها ويضغط عليها هكذا، ولكنها بقيت صامتة.

مدَّت يدها وقالت وهو يسير بجانبها: هذه العلبة؟

- لك.

- معذرة؟ لا أفهم؟

-هذا الخاتم تضعينه في إصبعك يوم الحفل ثم تعيدينه إليَّ.

فتحت العلبة، فوجدت خاتمًا ذهبيًّا بجعران أزرق في وسطه. قالت: تريدني أن أعلن عن محل الصائغ؟ ألم نتفق على أنني خارج البيع والشراء؟

قال في لا مبالاة وهو يدخل المركب: اتفقنا. ارتديه مع الجلباب فقط لا بد أن تكوني في أفضل زينتك، تذكري، أنت وجه لبلدك.

-ولكنني أملك الكثير من الذهب، ولا أحب الذهب أصلًا.

-هذا ذهب مختلف، تصميم فرعوني. ارتديه وأعطيه لي بعد الحفل. هل تريدين الجلوس على جدار المركب أمام النهر وقت الغروب؟

فاجأها بسؤاله. ولكنها قالت مسرعة: سنكون مع السائحين، وأنا...

قاطعها: لا تخافي مني، ماذا سأفعل؟ لن أرغمك على الطعام، أعدك. سنتكلم عن الحفل.

كانت تود أن تقول إنها لا تعرفه، ولا تعجبها شخصيته ولا غروره ولا كذبه، ولكنها لم تقل شيئًا.

فقال في إصرار: سأراك اليوم وقت الغروب؟

لم تكن تريد التشاجر من جديد.

قالت : لا بأس. شكرًا على الإفطار.

اختفى من أمامها، ولم يظهر مجددًا إلا عند وقت الغروب.

جلست على طرف المركب، وجاء مؤمن وجلس بجانبها.

نظر إلى النهر الداكن، ثم قال فجأة: كيف ماتت والدتك؟

توقفت عن التنفس لحظة، بدا وجهها شاحبًا ولم تردَّ. فقال وهو يغير الموضوع: هل قابلت سوزان زوجة محمود؟ تعشق مصر وتعشق مصر في محمود. حظه الجميل .

قالت وكأنه أيقظها فجأة: نعم هي طيبة جدًّا. ماذا سيحدث بعد ذلك؟ هل سيتركها؟

-هذا يعتمد على الاتفاق والحب والظروف وإمكان بقائها هنا.

قالت : يصعب عليَّ تصور زواجٍ كهذا .

نظرت إليه، ثم قالت: هل فعلت أنت هذا من قبل؟

ثم تراجعت قائلة: هذا لا يعنيني. أعني، تعتقد أن بيع النفس مسموح؟

قال وهو يفرد ظهره ويطبق ذراعيه وراء كتفه: بيع الجسد مسموح وليس بيع النفس؛ لأن بيع النفس ليس له رجعة .

رددت في حيرة: بيع النفس ليس له رجعة؟ وبيع الجسد مسموح.

-هذا رأيي. لم أفعل مثل محمود لأنني لا أستطيع التمثيل كل هذا الوقت، أمثل بعض الوقت فقط .

- وماذا تمثل؟ وأيَّ دور؟

- تعرفين وتشاهدين. المصري الأصيل صاحب حضارة القدماء ابن فرعون الأسمر الجنوبي البريء البدائي. كل الأدوار.

- ومن تكون أنت؟

- مرشد سياحي فقط.

-لا أفهم!- مهمتي أن أحكي للعالم عن حضارتنا، لعل يومًا ما ينفع الحكي وينظر إلينا الغرب بعين الرفق. مهمتي أن يسافر السائح وهو يعلم كل شيء عن بلادي ويحبها.

ابتسمت في سخرية وقالت: ولكنك تجعله يرى ما تريده، وليس الحقيقة.

قال في تأكيد وبطء: أجعله يرى ما يريده هو وليس ما أريده أنا.

أشار إلى الأفق وقال: انظري إلى ظلام السماء وعمق النهر. ترين كل شيء؟ تعرفين كل شيء؟ لا. الأفق أوسع من الروح، وهكذا هي الحقيقة. تتلوى وتهرب منَّا كالسعادة.

هزَّت رأسها ونظرت إلى النهر. ساد الصمت، وبدا وكأنه ينظر إليها، إلى جسدها ووجهها، التقت أعينهما فأدار عينيه عنها. شعرت بارتباك لا تفهمه قالت : هل يسبح الأطفال هنا ليلًا ؟ رأيتهم حتى الغروب.

قال وهو يخلع قميصه فجأة: بالطبع. هل تريدين أن تري بنفسك ماذا يفعل أطفال الجنوب ؟

وقبل أن تفتح فمها كان قد قفز داخل النهر، واختفى تمامًا عن نظرها حتى ظنت لثوان أنها تحلم، وهذا مؤمن يمثل من جديد. شعرت بالترقب وبالإثارة كما لم تشعر من قبل. هل ما زال حيًّا؟ لا وجود له، بل هو جزء من النهر. مرَّت دقائق كثيرة وبدأت تشعر بالقلق ونسيت الكثير من الألم واليأس لثوان، وتذكرته هو فقط. وموته غرقًا الآن. كانت لا تطيقه منذ ساعة، ولكنها تقلق عليه أيضًا. فللموت رهبة على كل حال، والغرق مفزع حتى مع من يرغمها على الطعام!

شعرت بشيء يتحرك وراءها. شهقت في فزع فابتسم لها والمياه تغرق جسده، وجلس على أرض المركب بجانبها. ازداد عدم ارتياحها وهو يجلس عاري الصدر هكذا والمياه تتساقط منه. تحاشت النظر إليه وقالت: لا بد أن تعود لغرفتك، الجو بارد والشتاء قارس .

قال وهو ينظر إليها في حماس: ليس قبل أن أخبرك بما رأيت في أعماق النهر. عندما يسود الظلام ويتمدد الأفق ليحيط العقل والواقع وكل الحقائق .

بدا لها وهو يتكلم وكأنه يرسم لوحة كلوحات بيته الافتراضي، يحرك يديه وينفخ في غبار المرارة وقبح الحاضر. يمسح الماضي الكئيب ويعيد كتابته. يلجأ إلى الحيوانات الخارقة والجن والإنس والشيطان والشياطين وانتصار الخير وسيادة العدل، وحكى لها عن تلك الفتاة الحبيسة في أعماق النهر بين عظام التماسيح النافقة التي تصرخ طلبًا للنجاة، وتسبح الأسماك
حولها في قسوة. يتخلى عنها الصديق والأخ حتى بقية الفتيات كُنَّ يَغَرْنَ من جمالها وشموخها، فأعجبهم حبسها بين عظام الأموات، وصراخها يذهب هباءً، وآلامها أصبحت صوتًا عذبًا لكل من حولها. أقنعوا النهر بأنها عروسته المنتظرة، اختاروها من بين كل الفتيات لأنها أفضلهم، ولا بد من التخلص منها. لا يفهم النهر صراخها وتأوهاتها، ماذا يضرها وهي بين أحضانه وفي أعماق نفسه؟ لا يدري أنها بين أحضان الموت والعظام المتحجرة. تبقى هكذا أعوامًا وأعوامًا حتى يأتي العام الألف فتتعثر في حجرة سحرية داخل محبسها تفتح لها آفاق العالم. تبلِّلها وتعيدها طينًا من جديد، ثم تحولها إلى هدهد يطير ويرقض بعيدًا في الصحراء وبين ثنايا الكون. هدهد يبحث عن العدل، وعندما ييئس يعود إلى النهر، ينادي على

الحجرة السحرية مرة أخرى، فتقول الحجرة في مرارة: لا أستطيع مساعدتك يا أميرتي؛ فالعدل في قلب الجني الشرير خطفه منذ زمن، ولا أستطيع الوصول إليه. والجني يكرهك يا أميرتي، تخيفه هيبتك وكمالك. اهربي بسرعة قبل أن يأتي الليل، وطيري بين الدروب، احكي قصتك لكل سابح وعابر سبيل لعل الخلاص يأتي من أحدهم. اعرفي يا أميرتي أنهم تحججوا بأن النهر يريدك للتخلص منك. والنهر بريء من غرقك. غاروا ومكروا، خططوا مع الشياطين، وأخفوا العدالة في قلب الجني، ولكنك تبقين دائمًا يا أميرتي كاملة، رائعة، كاللؤلؤ المكنون، لا تتلوثين بغبار الإنسانية. هكذا قالت الصخرة المسحورة.

كانت تنظر إلى وجهه بعينين لا ترمشان، وعندما انتهى من الحكي همست في صوت مبحوح: هذه قصة رائعة. ماذا حدث للأميرة؟

قال وهو يبتسم في رقة وينظر إلى شفتيها ثم صدرها : لا أعرف. كان لا بد أن أبقى أكثر داخل النهر، في المرة القادمة.

لم تلاحظ نظراته التي تبعد كل البعد عن البراءة، ولم تكن تلاحظ أي شيء، همست في بطء وحزن: هذه قصة خرافية.

قال في تأكيد : بل حقيقية، أقسم لك.

قامت لتتجه إلى غرفتها، مد يده ليساعدها، أمسكت بيده لا إراديًّا لثوان ثم تركتها، وقالت: تصبح على خير.

قال في رفق من جديد: علياء. لا تبكي اليوم. لا شيء يستحق بكاءك.

فتحت عينيها في فزع، فأكمل مسرعًا: أخبرني النهر. اعتبريني أخًا لك وصديقًا، إذا احتجت لأيِّ شيء.

تمتمت: أخ وصديق.

قال في تأكيد: أخ جدع، أقسم لك.

* * *

جلست كالتلميذ المطيع الذي يذاكر ليلًا ونهارًا وهي تشاهد عرض الراقصة جوانا، ثم عرض الرقص النوبي، ثم الرقص الفلكلوري، والأطفال الأجانب يحاولون الرقص ونطق الكلمات العربية والضحكات المندهشة تملأ المكان. جلست بجانب إيريكا، وكانت كعادتها تسأل الكثير من الأسئلة، وفهمت اليوم لماذا يطلقون عليها إيريكا الجاسوسة. كانت تهتم بالتفاصيل الدقيقة، كالأتربة على الستائر، وبدلة رقص جوانا الضيقة ناحية الصدر، والكراسي المزركشة بألوان غير متناسقة. وكلما بدأت علياء حديثًا معها تفقد إيريكا التركيز بعد ثوان لتنظر لشيء لا يكترث به غيرها، شيء دقيق وشديد الأهمية وتعلق عليه، وكأن التفاصيل هي غايتها وحبها الوحيد، ثم تعود فتسأل سؤالًا مفاجئًا عن مصر والمصريين والسياسة والحرية والمساواة، وكل الأفكار المجردة التي تتسع لتتعدى المقاعد المزركشة والموسيقا التي أفلتت نغمة من نغماتها واستعصت على النغمات الأخريات .

قالت إيريكا بعد دقائق: انظري إلى صدر جوانا، هل تعتقدين أنه حقيقي؟ لا بد أنها أجرت أكثر من عملية، فلا يمكن لأحد أن يكون لديه هذا الجسد بلا جراحات. انظري إليّ! آكل طوال الوقت، ولا أهتم بنفسي. رائعة جوانا. هل صدرها حقيقي يا علياء؟ ما رأيك؟

قالت علياء في ارتباك وخجل: لا أعرف.

أكملت إيريكا: مسكينة جوانا تفتقد خطيبها هنا. فكَّرت مرات في ترك كل شيء والعودة إليه. تحبه حبًّا عجيبًا، ولكنها تحتاج إلى المال، وتحب الرقص الشرقي.

هزَّت علياء رأسها ولم تجب. كانت تنتظر سؤالًا أو استفسارًا عن الآثار التي درستها وتذاكرها كل يوم .

كل الاستفسارات من الأطفال الأجانب تأتي لمؤمن، ويجيب عنها بحماس، ويشرح ويتكلم وكأنه يتكلم عن عائلته المقربة. هذا القبر، وهذا الفرعون، وهذه الملكة، وهذه الخيانة، وتلك الحرب. الأطفال الألمان يفتحون عيونهم في تعطش للمزيد. لا بد أنه يتقن الحكي كما لا يتقنه أحد.

قالت إيريكا مجددًا: تعرفين علاقتها بمؤمن؟

-ما علاقتها به؟

- صديقان جدًّا. صديقان مقرَّبان.

قالت في حسم: لم أكن أعرف أن الرجال في الجنوب يصادقون النساء.

وبدا لإيريكا أن علياء لم تفهم قصدها، أو لا تستطيع تخيل العلاقة أصلًا. فأكملت:

- هي علاقة خاصة مبنية على الاحترام المتبادل وتقدير ظروف الآخر. علاقة جميلة جدًّا إذا فكَّرتِ بها. لا يملك فيها أحدٌ ولا غيرة ولا شك ولا عذاب، وكل هذه المشاعر الشنعاء التي تمتزج بالحب.

قالت علياء وهي تنظر ناحية جوانا: لا أفهم بالضبط، ولا يهمني بالطبع. تعيشين هنا يا إيريكا؟

-وهل هناك مكان أفضل؟ التاريخ من ناحية، والفضاء، والنهر الطويل العتيق من ناحية. هذه هي الحياة التي تمنَّيتها.

- أتفق معك.

-مؤمن كان دائمًا المرشد السياحي الذي أعتمد عليه. حكى لي عن نفسه وهو طفل.

- ماذا حكى؟

- عن أول مرة قابل السائحين. كان في الخامسة من عمره يسبح حول المراكب النيلية، وينظر للسائحين من بعيد. لون شعرهم الأشقر، وبشرتهم البيضاء أثارت انتباهه، رفع يده ليشير إليهم بالسلام. كانوا يرفعون أيديهم بحرارة كلما رأوه، ظن أنهم يعرفونه عن ظهر قلب. وفي يوم ألقت له سائحة أمريكية كتابًا عن العالم بالإنجليزية. التقطه قبل أن يسقط في الماء، وبدأ يقرؤه، وعرف منه الكثير. ما أجملها من حكاية، ومن يومها وهو يحب السائحين.

تأملت علياء كلمات إيريكا، ثم قالت: هذه قصة حقيقية؟

- بالطبع حقيقية. أن تلقي له سيدة أمريكية كتابًا شيء حقيقي جدًّا.

- وأن يلتقطه وهو يسبح ولا يبل الكتاب ولا يسقط في المياه، وأن يعرف منه كل شيء عن العالم؟ كل هذا حقيقي؟

-هل تشكين في هذا؟

قالت علياء في تهكم: أبدًا. كيف لي أن أشك في شيء؟

ساد الصمت، ولم تكن علياء بطبعها تتكلم كثيرًا. بقيت صامتة في انتظار أن تشرح لأحد ما حفظته، حتى جلست بجانبها يان وكان وجهها دائمًا ينشر الخير من حولها، وسألتها وأجابت بإيجاز، ثم باستفاضة، ولم تدرك أن عيني مؤمن تراقبها من بعيد. بدت مختلفة بجلبابها الفرعوني والكحل في عينيها. لم تكن تضع أي مساحيق تجميل من قبل. التقت
أعينهما لثوان فأدار وجهه عنها، وكان دورها لتنظر إليه؟ كان يرتدي جلبابًا أبيض وطاقية خضراء، وكأنه كالعادة خارج من كتب أساطير قديمة يقرؤها الأطفال، بلونه الأسمرالداكن وملامحه الدقيقة بدا مختلفًا عن الرجال في القاهرة وحولها. بدا من عالم مختلف... يمثل دورًا مختلفًا.. كان فرعونيًّا إفريقيًّا خرج إلى الشمس للتو من رحم النهر والأهرام.

لا بد أن كل الأجانب يرونه جذابًا ويرونه حاملًا لهويات مختلفة ومدهشة.

كان يومًا طويلًا وحفلًا طويلًا. ولا بد من الانتظار إلى النهاية. وعندما ذهب الجميع إلى غرفهم، واتجهت هي إلى السلم لتذهب إلى غرفتها، توقعت أن يناديها. وفعل.

قال في حماس وهو يتجه إلى حافة المركب كما فعل أمس، ويتوقع منها أن تمشي معه: كنتِ رائعة حقًّا. لديك كل هذه المعلومات. أتمنى أن تعملي معنا كثيرًا.

قالت في اقتضاب وهي تقف أمام حافة المركب: شكرًا.

تفحص وجهها ثم قال: استمتعت بالحفلة؟

- لا أحب الحفلات .

ابتسم وقال وهو يجلس وساقاه معلقتان في الهواء: هل تجلسين معي قليلًا؟ أريد أن أضع خطة للغد.

ترددت لثوان، ثم جلست بعد أن تأكدت من أن مسافة تفصلهما، ثم قالت فجأة: اسمح لي، هل أنت من الصعيد حقًّا؟ من أسوان؟

هزَّ رأسه بالإيجاب.

قالت: ولكنك لا تتكلم مثلهم، ولا تتصرف مثلهم؟

-مثلهم كيف؟

-أعني لهجتك قاهرية، وكنت أظن أن الصعيد محافظ جدًّا و ....

ثم قال: تتكلمين كأخي بالضبط. هو محافظ أكثر مني. مثالي بكل المقاييس، ويعرف الحقيقة المطلقة.

نظرت إليه، لا تفهم هل يكلِّمها أم يكلِّم نفسه، وترددت قليلًا لأنها لم تعتد المهاجمة. ثم قالت: جوانا رقيقة وتعجبني ومخطوبة، أليس كذلك؟

ابتسم.... كانت تفكر في تركيز كيف تتكلم دون أن تجرح مشاعره، أو تجرح جوانا، ولماذا تسأل عمَّا لا يعنيها؟ تسلَّل بجانبها في بطء. رفع يده وأمسك بخصلة من شعرها الأسود، لم تشعر به. أكملت: لا بد أن نحترم خطيبها. أعني كلنا لا بد أن نساعدها على تحمل الغربة.

هزَّ رأسه بالإيجاب وعيناه تتجهان إلى شفتيها... رقبتها.... صدرها، خصرها، وكل جسدها البارز من الجلباب الضيق، ثم همس: أتفق معك. لا بد أن نساعدها على تحمل الغربة.

-ونحترم اختيارها.

-تفكيري بالضبط. نحترم اختيارها

أغمض عينيه وأنفه يستنشق شعرها، والشوق يتسرب إليه في بطء. شعرت علياء بشيء ما... أصابعه على شعرها... هل تتخيل أم هذه هي الحقيقة؟..قبل أن تنطق اتجه بشفتيه إلى فمها قبل زاوية شفتيها قبلة بطيئة، ثم ابتعد عنها في سرعة غريبة. شهقت في فزع وهي تقوم، وصدمة ما فعل لا توصف... لم تكن حتى تستطيع الكلام. جرت إلى حجرتها. أغلقت الباب، وجلست على سريرها. لم تنم. لم تبكِ ولم تأخذ الدواء.

الصدمة أربكتها.

الغضب الذي أيقظه داخلها لم تشعر به منذ موت والدتها. التباس المشاعر طغى على كل شيء. لا بد أنه ظن أنها سهلة ومنحرفة؛ لأنها تعمل معه؟ وماذا يهمها في رأيه أصلًا؟ ربما أعطته هذا الانطباع بتصرفاتها؟ من يدري؟ كلما تذكرت القبلة المفاجئة طغى الغيظ على كل المشاعر حتى مشاعر الحزن المستقر منذ زمن. وأربكها الالتباس في مشاعر النفس. لماذا تعيد المشهد في عقلها، ولماذا تلمس شفتيها بلا وعي. نظرت إلى نفسها في المرآة، ثم أدارت وجهها وصورة جوانا لا تفارقها. كانت صارخة الجمال وجسدها لم تر في تناسقه من قبل. هل هو على علاقة بجوانا؟ لم تكن تتصور أن هذا ممكن، وخيالها المتحفظ جعلها تتخيل أنه ربما قبَّل جوانا مرَّة أو ما شابه، ولكنه بالطبع لم يفعل أكثر من ذلك، لا تشك في هذا. لا تصدق إلا ما تراه، ولا ترى سوى ابتسامات بينه وبين جوانا لا أكثر. لن تصدق الشائعات، فهي وشايات في جميع الأحيان، وإذا كانت جوانا تحب خطيبها فلا بد أنها تخلص له. لا يوجد في عالم علياء حب بلا إخلاص. بل اقتنعت تمامًا اليوم أن جوانا لم تقبِّل مؤمنًا مطلقًا، ربما عانقته عناق الأصدقاء لا أكثر. سترحل غدًا لأنها لن تبقى في مكان واحد مع مؤمن؛ لأن الغيظ لا بد أن يطغى حتى ينتصر على الالتباس والحيرة. هزَّت رأسها بالنفي وهي تصرخ للنفس الضعيفة: يظنني غانية هذا المرشد! سهلة ومستعدة.

وعندما جاء الصباح كانت قد وضعت أشياءها في الحقيبة. فتحت الباب لتخرج منه ومن الأقصر كلها، وكان مؤمن أمام الباب، وقال في جدة: لا ترحلي يا علياء. أعدك لن تريني حتى طوال وجودك هنا. أعدك.

طفا غيظها على السطح، وفتحت فمها..قالت في تصميم: لن أبقى هنا ولو لحظة، ولا أثق بك، ولا أثق في وعودك. كنت تقول إننا إخوة. قلت هذا.

لم يجب. ساد الصمت لحظات. ظنت لثوان أنه ربما بدا حقًّا نادمًا... أنه في الأعماق لديه ضمير ما، مرن عن كل الضمائر.

قالت في غضب: لماذا؟

قال مسرعًا: لا بد أنه سحر النهر..أخبرتك عنه واضطررت أن أسبح ليلًا.

-أتمنى أن تفهم جيدًا أنني أعتقد أن العمل في السياحة لا يعني دائمًا الانحراف الأخلاقي، وأن هناك من السائحين الجادين ما يكفي مصر، وأن كل النساء ليست بلا مبادئ. وأن ....

قاطعها: لا بد أنك كنت تذاكرين هذه الخطبة طوال الليل. أعدك سأتحاشى الوجود معك، إلَّا إذا اضطررت لدواعي العمل. لن أضايقك مرة أخرى أبدًا. ولو فعلت فسافري على الفور في نفس اللحظة. وسننسى هذه الواقعة تمامًا، فلدينا عمل نقوم به.

بقيت صامتة لحظات.

فقال: هيا يا علياء. الكل ينتظرك.

أمسك بحقيبتها، وقال: سأضعها بالداخل، هيا اذهبي إلى عملك.

قالت في قوة: أتوقع اعتذارًا عما حدث بالأمس وليس فقط وعدًا.

قال وهو يضع حقيبتها على سريرها في قوة: وهذا لن يحدث أبدًا.

الرحلة الثانية

في اليوم التالي جاءه محمود وزوجته وسعادتهما على وشك الانهيار.

سوزان ومحمود كانا أسعد زوجين في الأقصر. فحب محمود جاء لسوزان هدية من السماء، وسوزان بداخلها تعتقد أن الله معها دائمًا، وأنها ضحية سوء حظ طوال عمرها. في هولندا تزوجت زميلها في البنك بعد علاقة دامت سبعة أعوام. كانت مترددة في الزواج، وعندما أتمت عامها الثلاثين وتمنت طفلًا وحياة مستقرة خيرته بين تركها أو الزواج، فكر شهرين ثم تزوجها، ولم تلبث أن حملت في ابنها، وبدا الكون مكتملًا والحقائق واضحة. وروتين السنين الباقية واضح. تعمل ساعات طويلة في البنك. يبقى ابنها في دار حضانة طوال اليوم، وزوجها يعود معها إلى البيت. وفي نهاية الأسبوع ينظّمان رحلات إلى الحدائق في هولندا وخارجها. يسيران ويخططان معًا لمستقبل طويل. سوزان بطبعها لم تكن قوية الملاحظة، ولم تستوقفها قط سعادة زوجها بالرحلات القصيرة مع البنك خارج البلاد، فقد كانت رحلاته مع البنك وحده، لا تتعدى يومًا أو يومين إلا عندما ذهب إلى اليابان كانت أسبوعين. وماذا في ذلك؟ لم تلاحظ بروده معها قط، ولا سخريته اللاذعة، كانت غارقة في الخطط المستقبلية وفيما تريد، وما ستفعل بعد التقاعد حتى نسيت من سيشاركها تلك الخطط. ولكن اختفى الزوج عندما وجد من تجري وسط الزهور أسرع من زوجته ومن تصغرها بأعوام. أثناء معركة الطلاق كان الابن المراهق غنيمة يتنازع عليها الطرفان، ومع أنها كسبت الغنيمة كانت تحقد على المحارب الذي خسر الغنيمة وكسب حريته. والظلم الواقع على سوزان، التي تخطط دائمًا للمستقبل وتنسى الحاضر، كان ظلمًا جعلها تكره كل من حولها. ازدادت المشكلات بينها وبين الابن. بدأت تراه عبئًا عليها؛ فالأب تزوج وهي لم تزل تربي ابنها. نهاية لم تخطط لها. وبدأ شعورها بأنوثتها يتلاشى وسط العمل المستمر. ولكنها لم ترضَ بحياتها، أقامت علاقات سريعة كلها باءت بالفشل. وطوال هذا الوقت لم تتساءل قط ما إذا كانت تسيء الاختيار أم ترى الحقيقة بزوايا وهمية، كانت على يقين أن الآخر دائمًا سواء كان ابنًا أو زوجًا أو صديقًا، جبان وخائن. كبر الابن وتزوج سريعًا وأنجب سريعًا. ظنت أن الحياة تغيرت، وأن العالم ربما عوضها بعائلة تحيطها وسط إحباطها. بدأت أولا بمحاولة التقرب من زوجة ابنها. ولم تنجح. دعتهم في رحلة إلى باريس ودفعت ثمنها. رفضوا الذهاب معها. وذهبت وحدها. وأخيرا فاجأتهم بزيارة إلى منزلهم وبقيت معهم ثلاثة أيام، وفي أثناء ذلك، ساعدتهم واشترت لهم الخضراوات، وأخذت طفلهم في جولات في الحدائق المجاورة. همس ابنها في أذنها بعد ثلاثة أيام: أمي اعذريني، أنت جئت بلا موعد أو دعوة. لدينا عمل يومي، ونفضل البقاء وحدنا، ولكننا سنأتي لزيارتك في إجازة عيد الميلاد وعيد القيامة. أرجو منك الرحيل اليوم.

قالت مسرعة: بالطبع أتفهم.

لم تكن تتفهَّم ولم تعذر. كانت تلك الحادثة بالنسبة لها نهاية لعلاقتها بابنها، وكسرة في أعماق الأعماق لا شفاء بعدها. بدأت جولاتها إلى شركات السياحة وهي تبحث عن مكان تهرب إليه. ملاذ وملجأ. وجدت الأقصر؛ فهي لم تذهب إلى مصر من قبل. في التاريخ دفء، وفي المعابد القديمة تقرب من النفس التائهة. أذهلتها الأقصر، ولم تكن تتصور أن للمعابد هذا الإحساس بالأمان والاستقرار. رأت من قبل معابد كثيرة بوذية ويونانية ورومانية، وكانت تراها معابد صغيرة أو شبه مدمرة، تشعرها بقوة الزمن وطغيانه على كل شيء، وكأن التاريخ لا يعود، وكأن الزمن إذا مَرَّ حطم وأشعل الشيب، كرهت كل المعابد ما عدا معابد الأقصر؛ حيث الأمل في البقاء، حيث الاكتمال والحياة. ففي الأقصر المعابد مكتملة كمال الشباب، ورائعة روعة الجسد الغض النابض بالصحة والانتعاش. في الأقصر يتوقف الزمن، ويصبح القديم ثمينًا، والجديد رخيصًا، ويصبح القديم يستحق الاقتناء، والجديد يستحق الإهمال. ويبدأ العالم في نقطة مختلفة ولا ينتهي أبدًا. وتتلاشى الحقائق المعتادة المنطقية، وتبقى الذاكرة تمحو الماضي والحاضر، ولا تقتنع بالمستقبل المظلم الذي ينتظرها في بيوت المسنين بين زوايا السجون المظلمة والموت المحقق، حيث الوحدة هي الحقيقة الدائمة إلى أبد الآبدين.

قرَّرت العيش في الأقصر، والتقت بمحمود، كان يعمل مرشدًا سياحيًّا، أرشدها إلى السعادة المطلقة، والنجاح فيما فشلت فيه طوال العمر. وكعادة سوزان لم تفكر سوى في خطط المستقبل، ولم تكترث بفهم من يشاركها في الخطط. أدخلها عالمًا جديدًا من المتعة والإثارة أفضل من الأفلام ثلاثية الأبعاد. كان كل الحب، وكل الثقافات، وكل التاريخ، وكل الشباب، وكل الفناء. أقنعها بشراء بيت في البر الغربي، وأقنعها أيضًا أن شراء بيت باسمها كأجنبية صعب جدًّا، ومن الأفضل شراؤه باسمه. كانت تعرف أنه متزوج، ولكنه أقنعها أيضًا بأنها حبه الوحيد، وأنه وجد بين ذراعيها كل الأوطان، وفهم العالم الذي يستعصي فهمه مع زوجته الأمية ومحيطه البسيط. شعرت سوزان أنها تعلمه وتربيه كابن ضال، تأخذه من غابات موحشة إلى عالم متحضر جميل، وتعشقه كما لم تعشق رجلًا من قبل. صفقة من السماء لسوزان ولمحمود. كانت متأكدة كلَّ التأكُّد من ولائه، فمن يرى عالمها المتحضر فلا بد أن يعطيها ولاءه. علمته كيف يأكل وكيف يعيش. وكان يتظاهر دائمًا بالجهل لتعلمه، وكانت تجازيه بالكثير من العملات الصعبة وتوكيل لحسابها في البنك. ولكن أن يسحب اليوم عشرة آلاف يورو بغير إذن منها فهذا خطأ لا يقع فيه الابن الضال، ولا بد من وقفة معه ليتعلم أن أموالها ليست للسرقة ولا للتبذير، وأنها عاشت طوال عمرها تدخر هذا المال لتتقاعد بكرامة، ولن تسمح له أن يصرفه على أصدقاء أو زوجة أو أبناء.

همس محمود لمؤمن بكلمة بذيئة ليصف زوجته، فقال مؤمن في قوة: أعطها المال يا محمود ولا تخرب بيتك.

قال بالعربية لصديقه: زهقت من المرة دي خلاص. لتعد إلى موطنها، أطلقها وتعود إلى موطنها.

ازداد احمرار وجه سوزان، وقالت بالإنجليزية: ماذا قال لك؟

فقال مؤمن مسرعًا: إنه يحبك، ولا يريد الاستغناء عنك. أنت أعطيته توكيلًا، فظن أن المال لكما معًا. اعذريه وألغي التوكيل.

وخزه محمود بكوعه قائلًا: ما هذا الهراء الذي تقوله؟ تلغي التوكيل، اتركها الآن.

أشار له مؤمن بالصبر وقال: سوزان سامحيه هذه المرة. ماذا فعلت بالمبلغ يا محمود؟

بدأ محمود في الحكي وقلبه موجوع من كل هذا الظلم بعد كل تضحياته من أجلها، قال في عتاب لسوزان: أخذت المال لأشتري لك أرضًا لنزرعها معًا وتذكرك ببلادك الخضراء، كل هذا الحب تقابلينه بالقسوة والنكران؟ لا أصدق هذا الجحود.

نظرت إليه مرارًا، ثم قالت: وأين الأرض؟

- نذهب إليها الآن. وضعت اسمك عليها أيضًا. ظلمتني! ماذا تظنين بي؟ تظنين أنني رجل يستغل زوجته؟ لا تعرفين شيئًا عن الرجل الجنوبي إذن. لو خسرت كل مالك أعمل لأبقيك سعيدة ومرتاحة، الرجل في بلادنا لا يمد يده لأموال امرأة. البيت بيتك. خذيه الآن والأرض أرضك. أبيعها وتأخذين مالك.

قالت مسرعة: أنا آسفة يا محمود سامحني يا حبيبي. هل يمكن أن نذهب للأرض؟

قال محمود على الفور: حالًا.

ولأن محمود كان يعلم أن هذا اليوم سيأتي، فقد وضع لافتة باسم سوزان بالإنجليزية على قطعة من الأراضي على الطريق الصحراوي بين الأقصر وأسوان أمس عندما حدثت المشاجرة.

ذهب بها إلى الأرض. وجدت اسمها على اللافتة، اعتذرت وعانقته وطلبت المغفرة.

في الليل قال مؤمن معاتبًا: اترك للمرأة شيئًا تحيا به؟ لا يمكن أن تأخذ منها كل شيء.

فقال مسرعًا: في بلادهم الدولة تطعمك وتسقيك وتعتني بك. ستذهب إلى بلادها عندما تعجز عن العيش هنا، أما في بلادنا فإذا مرضت أموت بلا دواء. هذا حقي ونصيبي. إعادة توزيع ثروات من الأغنياء للفقراء.

أصرَّ مؤمن: ارحم السيدة المسكينة التي تحبك حقًّا.

قال محمود: لا هي تحبني ولا هي تريد معرفة الحقيقة. لنغير الموضوع، يكفيني منازعات اليوم.

* * *

محمود عبد الهادي كان أقل حظًّا من صديقيه مؤمن وسمير، وكان يعرف منذ عامه الخامس أنه أقلُّ حظًّا. كأن التصنيف السريع يبدأ منذ لحظات الرحم الأولى فهناك بلاد أكثر حظًّا من بلاد أخرى، وأناس أكثر حظًّا من أناس آخرين، وداخل الوطن هناك الأقل حظًّا، وداخل القرية والبيت هناك من هو أقل حظًّا أيضًا. محمود عبد الهادي كان عبدًا لله بلا بيت كما يطلق الجنوبيون، وبلا عائلة كبيرة. كان غريبًا في أسوان. غجري ومجهول. في الحقيقة له أب وأم عملا معًا سنوات لإعالته هو وأخوته. وفي الحقيقة أبواه حاولا العيش في الجنوب في سلام، وفي الحقيقة أيضًا أن أبويه لا يعرفان لهما بيتًا ولا وطنًا سوى أسوان، ولكنهم غرباء. لا ينتمون لقبيلة معروفة النسب ولا لعائلة قوية. فهم محمود هذا منذ بدأ الطلاب في ابتدائي بمعايرته والابتعاد عنه، وفهم هذا أكثر عندما كبر وعشق، ولم يجرؤ على البوح لأصحاب العائلات.

محمود كأصدقائه عشق في صمت، ومن حظه أنه عشق «ليلى» أخت صديقه مؤمن. كان ينتظرها خارج المدرسة ويتبادلان اللمسات السريعة في السيارة التي استلفها من أصدقائه ثم تعود إلى البيت، وبعد عام وهو ينتظرها ككل يوم نظرت إليه، وسارت إلى بيتها بلا كلمة. فهم محمود وعرف. ستتزوج. لم يجرؤ على طلبها للزواج، وكان يعرف أنه الغريب،

دمه مباح، وعرضه رخيص، ولا يثق فيه أحد. تقبل قدره، وبحث عن غريبة مثله، ثم عن أجنبية لا تفهم تلك الحدود ولا تكترث بتقسيمات البشر. ولأن الحظ يتتبع أناسًا بعينهم، مات والده قبل أن يكمل عامه الرابع في الجامعة، واضطر للعودة إلى أسوان والعمل لاعالة أمه وإخوته. والعمل صعب وهو غريب، ولا يثق فيه أحد ولا يأمنه أحد لا على مال ولا على أرض.

تقابل مع سمير ومؤمن في المدرسة. مؤمن كان مثله خجولًا وهادئًا ولكنه كان ابن عائلة. سمير كان رياضيًّا وعصبيًّا واجتماعيًّا، وكان مسيحيًّا كما اكتشفا بعد فترة قليلة من التعارف، عندما جلس في ركن من الفصل وقال في هدوء: أريد أن أصلي، هيا، ابتعدوا.

فضحك الاثنان وقالا: تصلي جالسًا؟ كيف؟

لم يخبرهم أنه مسيحي، بل شرح لهم كيف يصلي، وصلى أمامهما. قال مؤمن : ماشي نلعب بقى؟

الصداقة بين الثلاثة مؤمن وسمير ومحمود دامت عمرًا وسط كل الإحباطات والضغوط من العائلات الثلاث. فكل عائلة كانت ترى في هذه الصداقة آفة وذنبًا. الصديق يكون من وسطك ودينك وليس غريبًا ولا غجريًّا. وهذا الاختلاف يعني أن الصداقة مبنية على الفسق والفجور، وأنها صداقة مع الشيطان لا محالة. أكثرهم احترامًا بين الجميع كان سمير، فقد كان مطيعًا للعادات محبًّا للأهل والوطن. لم يتمرد كثيرًا. عندما دخل كلية الشرطة همس الصديقان في سذاجة، أن سمير سيتوقف عن شرب الحشيش معهم، بل سيقبض عليهما عندما يتخرج. وبدآ الابتعاد عنه نهائيًّا تحاشيًا لهذا الموقف السينمائي المأساوي. ووقت الكلية تعرض سمير كزملائه لصدمة العيش والدراسة في القاهرة، وكانت لهجته وملابسه مصدر سخرية الجميع، وأحب جارة له قاهرية ترتدي الملابس الضيقة، وتصادق الرجال بلا خجل. عندما فاتح أمه في الزواج منها قالت في هدوء: يا ريت! بس خلاص كلمنا عمك، حتكسف أبوك؟

تزوج ابنة عمه في خضوع ولم يحبها قط. ولم يلبث أن عاد بعد الزواج مباشرة إلى صديقيه يبحثون معًا عن أفخر أنواع الحشيش لنسيان الواقع المؤلم المفروض عليهم، ونسيان كل نساء الأرض على الامتداد من مصر إلى القطب الشمالي. فرح الأصدقاء بعودة سمير بعد غياب سبع سنوات، كانت فرحة لم تحدث لأحد من قبل حين احتفلوا معًا، بكل الطرق ومن يومها وسمير لا يفوت أسبوعًا دون السهر معهم أينما كانوا، وأينما أخذتهم الأرض. وبدا أن حظ سمير الجميل وطريقه

المهد ليسا سوى سراب في الصحراء؛ فزوجته كما يدعي كالصخور الجيرية لا تشعر ولا تفهم، وكان يمكن تحملها ببعض السهرات واللهو، ولكن رئيسه في العمل كالواقع والموت موجود أبدًا، وحقيقة مؤلمة: كان يكرهه ويتعمد إذلاله، ويومًا سخر منه أمام زملائه قائلًا: أريد أن أرى ماذا سيفعل هذا الطويل في هذه القضية ليداري فشله في كل قضية في يده؟ فرد عليه سمير بلا وعي قائلا: هذا الطويل طويل اللسان أيضًا؟

الاصطدام بالقطار عادة يودي بالحياة في مصر، ولكن الاصطدام بالرئيس بهذه القوة لا يودي بالحياة فقط، بل يقيم الدنيا للأبد. وكان على سمير دفع ثمن كلمته بقية عمره. ومن يومها والرئيس يتعمد إذلاله في كل اللحظات وأمام الجميع. حاول سمير نقل نفسه ولم يستطع، فكر في أن يستقيل، ووقفت عائلته له بالمرصاد؛ فهو الحكومة والسند، وبدونه يفقدون هيبتهم، حاول التعايش ولم يزل يحاول حتى يومنا هذا.

مؤمن للأسف ابتعد عن الخمر والحشيش بعد أن أوشك يومًا أن يبوح بما يخبئ في زوايا نفسه التي لا يصل إليها أحد بمن فيهم هو. في ذلك اليوم قال لأصدقائه وهو يحتسى النبيذ: آخر مرة أشرب معكم، لا خمرة ولا حشيش، اليوم هو اليوم الأخير.

ضحكا وقالا: ستنسى غدًا.

أخافه انكشاف كل الضعف، وقرر أن يشاركهما الجلسات دون أن تمتد يده إلى أي شيء يمكن أن يجعله يبوح بحقائق دفنها منذ أزمنة بعيدة. لم يتكلما عمَّا حكاه لهما وكأنهما لم يسمعا شيئًا. هل تذكرا؟ هل تعمدا تجاهل البوح وقت انكشاف الحواجز؟ أبقى على وعده حتى وسط كل الإغراءات خوفًا من تكرار البوح وانكشاف ما يجب أن يبقى مبهمًا بين حنايا الأيام.

ما يبقي هذه الصداقة قوية كانت ذكريات الطفولة وتوقف الزمن وهم معًا، وكثيرًا ما خططوا كالأطفال مقلبًا في شخص ما، والبحث عن حقيقة شخص آخر، واللهو بضعف وطمع أحدهم أو غيرهم وغيرها من الأشياء التي تبعث الفرح لدى المراهقين والصبيان، وهدفهم اليوم كان مختلفًا، واللغز كان كبيرًا.

* * *

صمم الأصدقاء الثلاثة على معرفة سر كمال، ولماذا تم منعه من السفر. فظهور الحقيقة ضروري، فمثلًا لو كان كمال مختلسا للملايين من أموال الفقراء، فلا بد من مشاركته هذه الغنيمة، ولو كان من النشطاء الطالبين للحرية والمساواة، فلا بد من الابتعاد عنه فورًا، ويغور القرش من وشه. فسيأتي بمتاعب لا يقدرون عليها، السارق يسهل للسلطات
التعامل معه، أما طالب الحق فلا بد من الفتك به، لا يخرسه تلويح بانحراف ماض، ولا يغريه وعود بمنصب أو مال. هو العدو اللدود والمارد الذي لا يدخل المصباح أبدًا .

لم يستطع سمير معرفة السبب من أصدقائه في الحكومة، اتفق الأصدقاء الثلاثة على أن الحل الأمثل يكمن في مذهبات العقول: الحشيش أو الخمر أو الاثنين معًا، أو ما يفضله كمال. وكان لا بد من اختيار الوقت المناسب عند نوم الجميع والجلوس في الهواء الطلق، وإقناع كمال بالجلوس معهم «داخل مصر» في هذه الأيام الخاصة والهامة بالنسبة له التي يزور فيها أوروبا في خياله الخصب. وكان الاتفاق على أن يستدرجه سمير إلى الصعود إلى الدور العلوي، والجلوس معهم وتدخين الشيشة في الهواء الطلق وعلى ضفاف النيل. فعل سمير هذا بكل أدب وبراءة. جلس كمال صامتًا صمتًا تامًّا، وكان موقفًا محرجًا وغريبًا جدًّا لم يتوقعه الأصدقاء. حتى بدأ محمود الحديث: مؤمن يشكر فيك طوال الوقت يا كمال بيه ويحبك جدًّا.

هزَّ كمال رأسه بالإيجاب. عرض عليه محمود أن يدخن شيشة معهم، أو يشرب نبيذًا أسوانيًّا معتقًا مختلفًا عن كل ما يعرف. تردد بعض الشيء، ثم تقبل شرب بعض النبيذ، بقى الثلاثة ينظرون إليه في فضول، وينتظرون رأيه في هذه الصناعة المحلية وهذا العمل اليدوي. أخذ يستطعم النبيذ دقائق ثم قال: لا بأس به، ولكنه ليس كنبيذ باريس بالطبع. قال سمير متحمسًا: ذهبت إلى باريس؟

فأجاب كمال: ذهبت إلى كل البلاد الأوروبية. كم أشتاق لها! البيوت العتيقة، والجو الذي يرفق بالبشر ولا يحرقهم، والأناس المبتسمة و.... و..... ولكن قدري أن أبقى هنا بين الظلمات .

نظر كل منهما إلى الآخر ورددا معًا: ظلمات؟ نحن هنا في الظلمات؟ ماذا تفتقد في بلاد الغرب؟ اشرب، أم تريد أن تجرب تدخين الشيشة؟ يفوتك الكثير إن لم تجربها.

بدا مترددًا، فأعطاها له مؤمن مسرعًا، وبدأ الحديث معه عن كل شيء. بدأ سمير يسأله ما إذا كان لديه زوجة تنغص حياته مثله ومثل محمود، فأجاب أنها رحلت مع ابنه بعد صدور الحكم إلى باريس، ولم تفكر في أن تبقى هنا معه حتى تنتهي قضيته.

قال سمير مسرعًا: وما طبيعة القضية؟ ربما أساعدك؟

صمت لحظات والنهر يتلاشى من أمام عينيه، وزوايا الواقع تهتز، والكل ينتظر في حماس. ثم قال: لم أر ابني منذ عامين. طلبت منها أن تبقى معي، ولكنها فضلت السفر، تعليمها فرنسي، وشخصيتها فرنسية، لا تأتي حتى لتزورني.

قال محمود مسرعًا: ده جنس معفن ملوش لازمة.

هزَّ كمال رأسه بالإيجاب. فقال مؤمن في إصرار: هل اتهموك بالاختلاس أم استغلال النفوذ؟ قاسية هذه الدولة، حتى السرقة لا تستطيع أن تنعم بها في سلام. لا بد من منغصات، رشوة إلى هذا، وشرح لذلك، وأسئلة وتحقيقات.

قال كمال في قوة: لماذا أسرق؟ أسرق؟ أنا؟ بل سُرقت أنا وعائلتي وقت التأميم. أخذوا أموالنا غصبًا، أموالًا ورثها والدي عن جدي. أنا أسرق؟

قال محمود مسرعًا: ماذا تقول يا مؤمن؟ هل يبدو لك كمال بيه كمن يسرق؟ تريد العودة للملكية وقلب نظام الحكم؟

قال وهو يشرب من الشيشة: أشعر بالغثيان.

فقال سمير مسرعًا: لماذا تم منعك من السفر؟

-أشعر بالرغبة في النوم، اعذروني. سأذهب إلى حجرتي.

نظر كل منهما إلى الآخر ثم قالا: لا بد أنك أغضبت رجلًا مهمًّا.

أمسك بيد مؤمن قائلًا: هل يمكن أن تذهب بي إلى غرفتي؟

قال في قوة: ليس قبل أن تخبرنا.

-ماذا تريدون؟

-الحقيقة.

-ابحثوا عنها بعيدًا عني، فلا أحد يحب سماعها، لا هنا ولا في أي مكان. دائمًا تستفز الأموات، وتغضب الأحياء، وتشعل الضمائر، لا أحد يحب حتى التاريخ. كل ما تفعلونه هو تضليل السائحين وإرشادهم للجهل. أنتم جهلاء مثلهم. كلكم جهلاء.

نظر كل منهما للآخر ثم تمتما: لا يبدو سعيدًا. صنف مغشوش يا محمود. ألا تستطيع حتى شراء الحشيش؟ يعني تشتكي منك الزوجتان معًا، وحتى الحشيش تفشل في شرائه.

قال كمال فجأة: حسنًا. تريدون معرفة سبب شقائي؟ كتبت كتاب تاريخ. أغضب بعض الناس. تاريخ وليس مستقبلًا. لا بد أن التاريخ مخيف في بلادنا.

ردد الثلاثة معًا: كتاب تاريخ؟ أنت سكران طينة، صح؟

- لا أمزح، كتاب تاريخ.

- ماذا كتبت في كتابك؟

- أظن أنني أزحت الغبار عن بعض الحقائق. لا أتذكر. أريد النوم.

بقي الثلاثة محلقين في الهواء، ثم همس محمود لسمير: وهل إيواؤه هنا جريمة يا صديقي؟ هل لا بد أن نبتعد عنه؟

قال سمير في تصميم: الرجل شرب كيلو حشيش وحده، وخمرًا معتقًا، هل تصدق هذا الهراء. لا بد أنه اختلس مبلغًا ما.

في الصباح خرج كمال من حجرته لأول مرة، وبدأ يتجول في المركب وهو يمسك برأسه ويتأوه ويدور حول زوايا المركب في روتينية، حتى سمع صوتًا يعرفه: أنكل كمال؟

نظر كمال أمامه، ووجد علياء أمامه. يعرفها منذ زمن، فهو صديق لعائلتها ووالدها. قال في دهشة: ماذا تفعلين هنا؟

أخبرته أنها تعمل مع يان كمرشدة، وأنها تعمل مع مؤمن. بدا واجمًا بعض الشيء، ثم قال: احترسي منه.

- تعرفه؟

- هو مرشدي السياحي.

قالت في تأكيد: أعرف. لا أثق فيه على الإطلاق.

نظرت حولها، ثم اقتربت من الطاولة، وبدأت تستنشق رائحة الطاولة وقالت في حيرة: أشم رائحة غريبة، أتمنى ألا يكون حريقًا .

قال كمال مسرعًا: ليس حريقًا، لا تقلقي!

- أنا متأكدة أنها رائحة غريبة.

نظرت حولها من جديد، ورأت «مؤمن» أمامها. ابتسم لها في فتور، ثم سار في طريقه، فنادته قائلة: أشم رائحة غريبة.

توقف، ونظر إليها وقال: لا بد أنها جوانا أحرقت شعرها. تفعل هذا دائمًا.

ثم خرج من المركب. بقى كمال جالسًا وهو يمسك رأسه في ألم فقالت علياء: أنت بخير؟

- أنا بخير. صداع فقط. لا تهتمي. اذهبي إلى عملك.

عندما جلس كمال مع مؤمن في البار الإنجليزي في الأقصر قال في عدوانية: ماذا تفعل علياء هنا؟ كيف تركها والدها تعمل هنا وسط كل هذا الانحراف؟

انفجر مؤمن في الضحك ثم قال: الانحراف؟

- هي بنت عائلة محترمة. سأخبر والدها عندما أعود إلى القاهرة.

قال مؤمن في لامبالاة: أعتقد أنها تفضل البقاء هنا وسط الانحراف عن الذهاب لوالدها.

-هو صعب بعض الشيء، ولكنه والدها. مؤمن، إياك! إياك أن تستغل براءتها!

قال: أستغل براءتها؟ عم تتحدث؟ هي لا تعجبني أصلًا. وأنا لا أستغل براءة أحد. أنا نفسي ما زلت بريئًا بالنسبة لكاتبي كتب التاريخ ومؤرخي الأمة. ماذا كتبت في كتابك؟

-سننسى كل ما حدث أمس حتى لا أقطع علاقتي بك.

* * *

كشف المستور داخل خبايا النفس صعب، ويستعصي حتى على علياء التي أتقنت في الماضي التصالح مع النفس، وترويض اللاوعي ليتصالح مع الوعي، ويشاركه وليمته العلمية والإنسانية. ولكن هذه الرحلة جاءت في وقت يبدو فيه ضعف النفس وهزيمتها. هي تنتظم في الدواء، ومن حظها السعيد أن مؤمن أوفى بوعده، وبدأ يتحاشاها تمامًا. حتى إذا اجتمعا
أشاح بوجهه عنها سريعًا، وكأنها غريبة عنه تخرج بقميص نوم مغرٍ في الشارع، وهو الرجل المتدين يشيح بوجهه عنها. عبس وجهها لثوان، وكأنها تغتاظ بعض الشيء لهذا الإهمال والازدراء المتعمد. وإذا سألته عن أي شيء يخص العمل أجابها وعيناه لا تقابلان عينيها في ثبات وإيجاز، وكأنه بالنسبة لها أصبح جنوبيًّا لم ير النساء ولا يعرفهن، وكأنه جنوبي يعرف أمه وأخته ويهاب الغريبات، ويخجل من حرمتهن. ألم تتوقع هذا منه منذ البداية؟ كان يتصرف بطريقة صادمة لها في البداية، والآن أصبح الشاب الجنوبي الذي توقعته في خيالها، وتمنت أن تتعامل معه، وليس مع هذا الغريب الذي يستبيح كل النساء ويكسر كل قيود الضمير. هل كان يتسلل إلى غرفة جوانا ليلًا؟ أحيانًا، بل كثيرًا ما كانت تنتظر

خطواته وهمساته لجوانا. لم تسمعها. وأحيانًا أخرى كانت تغمض عينيها وتغطي وجهها بعد أن تأخذ الدواء، وتهمس لنفسها: ما هذا الهراء؟ وما المهم في علاقات هذا المرشد. هو مرشد سياحي تعمل معه لمدة شهر، ثم تعود لحياتها، تعود لحياتها. والعودة مستحيلة، والكون انتهى، والعالم سحقها سحقًا. رن جرس الهاتف من جديد. نظرت للرقم ولم
تجب. ولكن هذا الملل والروتينية يفوقان كل الحدود. والتصرفات المحسوبة تؤدي بصاحبها إلى التعقل والتروي، والتعقل والتروي يؤديان إلى العمر الطويل. وهي تتمنى الخلاص سريعًا.

بعد أسبوعين من واقعة القبلة المفاجأة، خرجت من حجرتها باكرًا، ورأت «مؤمن» يجلس في بهو المركب ينظر إلى بعض الأوراق ويجهز ليومه. ترددت قليلًا ولمست مكان قبلته بلا وعي، ثم قالت في عزم وقوة: مؤمن؟

اتجه بنظره لها في بطء وابتسم .

أكملت : عندك وقت اليوم؟

قال وهو ينظر إلى أوراقه: لماذا؟

-كنت أفكر..

نظر إليها في شيء من الحيرة: بمَ تفكرين؟

- أنا أعمل هنا منذ أكثر من ثلاثة أسابيع.

قال مسرعًا: المرتب آخر الشهر.

- لا أسأل عن المرتب ولا أهتم به.

قال في روتينية: لا بد أن تهتمي به. هذا حقك.

-جئت أسألك... أطلب منك... إذا كان عندك بعض الوقت.

نظر إليها ينتظر طلبها، فأكملت في ثبات: أريد أن أرى أسوان معك. أتمنى أن توافق على أن أستأجرك مرشدًا سياحيًّا لي لمدة يوم أو نصف يوم. فأنت تتقن عملك أكثر من كل المرشدين، وأريد أن أتعلم منك أيضًا.

تمدد على المقعد ونظر إليها وهو يصفر في دهشة، وقال: لا أصدق ما تقولين. ماذا حل بك يا علياء؟ لا بد أنك تشعرين بالملل حقًّا. ستدفعين لهذه الجولة؟

-بالطبع.

ثم نظرت إلى الخاتم الذي يبدو أنها نسيته تمامًا، وخلعته، ومدت يدها قائلة: أنا آسفة نسيته تمامًا. كان لا بد لي أن أعيده منذ أسبوعين. عادة لا أنسى.

قام. أطال نظره إليها، ثم قال: احتفظي بالخاتم، هذا هو الثمن، دائمًا .

- أسأت فهمي يا مؤمن، أنا لست من هذا النوع من النساء. ولا أقبل هدايا غالية من رجل لا أعرفه. أرجوك، خذ الخاتم .

- هذه ليست هدية غالية.

-إنه خاتم من ذهب.

-أراهنك أن حقيبتك فقط بأضعاف ثمنه.

فتحت فمها، فقال مسرعًا: أفهمك. تعتقدين أنها غالية عليَّ؟ لا ليست غالية عليَّ. صاحب المحل صديق وشريك.

-لماذا؟

-أحب أن أعطي عملائي ذكرى من مصر ليرشحوني لأصدقائهم. لا أستطيع أن أبدأ جولتك اليوم، ولكنني أستطيع أن أبدأها غدًا يومًا كاملًا. فغدًا تصل المركب إلى أسوان. اتفقنا؟

قالت في ثبات: أرجو... ألا تسيء فهمي وألا أبدو غير ممتنة لك. أشكرك على كل شيء. و..

-أفهمك يا علياء. وأعدك من جديد أنك سائحة بالنسبة لي لا أكثر.

قالت في سخرية لم تعتدها: أتمنى ألَّا أكون سائحة بالنسبة لك كسوزان بالنسبة إلى محمود؟

ندمت على كلماتها وأدهشتها جرأتها.

نظر إليها ثم قال: ليس كل السائحين سواء. أعدك بأنها ستكون رحلة العمر. رحلة لن تنسيها.

* * *

لا بد أنه الدواء يجعلها تقول وتفعل هذه الأشياء. لا بد أن تسأل طبيبها عندما تعود إلى القاهرة. فهذا الارتباك في وظائف العقل يزعجها إزعاجًا يطغى على كل الحزن بداخلها.

منذ فعل فعلته المفاجئة المفزعة والنفس في ارتباك. غضب تارة، ويأس يغفو كثيرًا ولا يختفي.

خرجت معه في الصباح.

في أسوان سألها ما إذا كانت تريد رؤية التماسيح حول بحيرة ناصر. وافقت على الفور. كان يسوق المركب بحرفية وهو يعرف كيف يقرأ مياه النهر، شاب على يده. في البحيرة اختفت الحدود، وأصبحت المياه تسيطر على كل الأفق بلا نهاية. نظرت إلى المركب الصغير بين المياه الساكنة، ثم نظرت إليه وقالت: لا أرى تماسيح.

-اصبري بعض الشيء.

كلما نظرت حولها ينفصل الواقع عن الحقيقة، ويبتعد الماضي والمستقبل. في عرض المياه، يظهر عجز العين عن الوصول إلى النهاية. وتتلاشى الحواجز الآمنة، كيف فعلت هذا بسذاجتها؟ جاءت معه إلى منطقته، وجعلته يرشدها إلى منتصف الفضاء، ويتركها هناك بلا ماض. مياه بلا حدود ولا شاطئ.

بدا عليها عدم الارتياح فجأة، ولم تنطق بكلمة.

قال في رقة: خائفة؟

قالت مسرعة: بالطبع لا أخاف.

أوقف موتور المركب ثم قال: تركبين مركبًا معي في عرض البحيرة، وتطلبين مني أن أرشدك؟ لِمَ هذه الثقة؟

صمتت، لا تدري أتطلب منه العودة إلى الشاطئ، أم تستمر في ادعاء الشجاعة.

-لا بد من الصبر لترى التماسيح.

التقت أعينهما لثوان والتوتر يحيط بها. ولا تدري أتخاف منه فقط أم من نفسها. لا بد أنها تخاف منه هو فقط. ولكن وجوده حولها يربكها وشعورها بجسده بجانبها قوي ومسيطر على العقل سيطرة تامة.

قال فجأة: هنا. انظري. ها هو ذا تمساح صغير.

أشارت إليه بحماس طفل، وضحكت لأول مرة في تلقائية وبراءة. منذ رآها لم تضحك قط.

وقفت على المركب الصغير، وقالت وهي تشير للتمساح: انظر كيف يتحرك.

صورته صورًا كثيرة، وبدأت تسأل عن التماسيح وهو يجيب. ثم سار بالمركب للشاطئ. وهو يقول: لم أكن أدري أن التماسيح تسعدك لهذه الدرجة، وإلا كنا قابلناها منذ اليوم الأول.

أكلا معًا، وأكلت اليوم دون تهديدات منه. أكلت لأول مرة؛ لأنها تريد الأكل، وليس لأنها تريد أن تعيش. شرح لها كل شيء. استمعت له، وضحكت مرة ومرات. أخذها إلى معبد فيلة ليلًا حتى يكون المعبد لهما فقط. قاد المركب إلى الجزيرة حيث المعبد.

جلس على أرض المعبد متربعًا ثم قال : اجلسي.

جلست أمامه، فقال بصوت خافت: ضعي يدك على الرسومات داخل المعبد. هل تشعرين بها؟ بارزة ودقيقة... تعرفين قصة إيزيس درستِها في المدرسة وقرأتِ عنها، وتكلمتِ عنها مع السائحين. سأحكيها لك اليوم من جديد.

بقيت صامتة، وللحظات تذكرت قبلته المفاجئة. فاجأتها أم أزعجتها أم أغضبتها؟ ولماذا بمرور الوقت تتذكرها بشيء من الحنين. ولمَ هذا الشوق للمسات من رجل لا تعرفه ولا تثق به؟ لا بد أنه الدواء .

قال: ألا تخافين مني هنا أيضًا؟ ونحن وحدنا ليلًا في جزيرة ومعبد، والحارس صديق قديم، ولن يسمع استغاثتك أحد؟قالت في قوة: لا أخاف منك.

-هذا أفضل. انظري إلى إيزيس، دائمًا تفعل شيئًا وأشياء، ولا تبكي على حظها، ولا تستسلم للقدر. ترينها مرسومة وهي تعطي البركة لفرعون، أو تحث ابنها حورس على الانتقام، أو تبحث عن بقايا الزوج. لا تستسلم لحزن مع كل ما فقدت. الغريب أن القصة ليست كغيرها من القصص. لا تنتهي بانتصار الخير، وكأن الشر والخير متساويان في القوة، وكأن الإله «ست» موجود دائمًا يفكر ويبتكر.

صمت لحظات، ثم قال بصوت خافت: علياء.... في المحاولة يمكن الانتصار.

-ماذا تعني؟

-في الصراع بين الخير والشر تحاول إيزيس جاهدة ولا تستسلم، مع أن «ست» يقتل زوجها ولا رجعة في هذا، فلا زوجها يعود كما كان، ولا السعادة كاملة ومزينة بالزهور والملائكة. قصة لا تنتهي نهاية مريحة، ينام بعدها الأطفال ويأكلون مع الملائكة. ما نتذكره عنها هو أنها تستمر في الصراع والمحاولة... ما يعجبنا فيها ليس قدر قوتها، فربما هي ليست بقوة

ست إله الشر، ولكن قدر المثابرة وتخليد ذكرى الزوج، أصبح موجودًا لأنها تريد هذا، تحكي عنه لمصر كلها، ولا تستسلم لغياب صوته ورحيله. في الحكي الخلود وليس في الجسد. تفهمينني؟

هل ارتعشت يدها؟..لا بد أن جسدها كان يرتعش.. لا بد أن الدموع كانت تترقرق.

قال : عندما تبكي المرأة تحتاج إلى صدر رجل، أليس كذلك؟ هل هذه الدموع من أجل أن آخذك إلى صدري؟

قالت مسرعة وهي تمسح دموعها: لا. بالطبع لا.

-إذن كفي عن البكاء. اعذريني فقد سمعت عن موت والدتك. يبدو أنه كان مفاجئًا، لا أعرف الكثير عنك، ولكنني أعرف أنه بترك من الداخل و... والدك لا يبدو غزير المشاعر، وربما لا يعرف كيف يحتوي كل هذا الحزن. الفقدان لا رجعة فيه. وسيبقى القلب مثقوبًا لا محالة. ولكن لا تقتليها مرتين. تكلمي عنها حتى تحيا داخل كل من حولك. فما فائدة الأحياء إذا
لم نذكرهم؟ الحي ميت إذا اختفت كلماته، والميت حي إذا بقي تاريخه. أبقي عليها بداخلك حتى لا تنسيها. ستعيش بذاكرتك، والذاكرة تمحو الحاضر والمستقبل، ويبقى الماضي مستعصيًا على التجاهل. حتى إذا آلمتك الذكرى أبقي عليها.

كانت دموعها تتساقط وتمسحها بعصبية. بقي صامتًا ولم يقترب منها. هل بكت كثيرًا ؟ لا تتذكر.

قالت فجأة: لماذا تفعل هذا؟ من أنت؟

-مرشد سياحي. وهذا عملي لا أكثر. قلت لك إنها رحلة لن تنسيها.

-هل يمكن أن نعود الآن؟

قام في هدوء، بدأ في السير، ناداه الحارس، فدس في يده بعض المال، وتكلم معه بلهجته لثوان، ثم سار بجانبها. جلست في المركب الصغير في عرض النهر المظلم ظلامًا كثيفًا، وبقيت صامتة صمتًا تامًّا. لم ينطق هو أيضًا برهة، ثم قالت في هدوء: هل تظن أنك عالجت حزني إذن؟ أنك أرشدتني إلى السعادة؟

-لا يجرؤ أحد أن يفعل هذا. الحزن ليس مرضًا، هو قمة الإبداع والإنسانية. احزني، فلا مفر من الحزن. ولكنني أتمنى أن أرشدك إلى الطريق الآمن للحزن، وليس الطريق الوعر الخطير.

-وكأنك خارج هذا العالم. لم تحزن قط ولم تفقد. وكأنك عالم بكل الأمور وبخبايا المصريين والأجانب. لماذا؟

ابتسم : ربما أعرف عن الحزن الكثير ومشيت في طرقه كلها، وربما قابلت من البشر الكثير، فلا أرى سائحًا أجنبيًا وآخر مصريًا، بل أنظر إلى حيث يكمن الضعف، والضعف دائمًا موجود، ولكن البعض يداريه بحرفية أكثر، ولا بد أن تفهمي السائح قبل أن ترشديه إلى الطريق.

وصلا إلى الشاطئ، خرجت من السفينة، وخرج وراءها وكأنه يتحاشى لمسها مطلقًا. هل يغضبها هذا أم يطمئنها؟ لا تدري. كانت تشعر به من حين إلى حين، وكأنه ينوي أن يمد لها يده ويأخذها بين ذراعيه ولا يفعل. ربما كانت تتخيل. ولكنها رأته ينظر إليها مرة أو مرتين. نظرات تحمل شوقًا إلى جسد أو عمقًا يصل الروح، لم تتأكد .

بقيا صامتين حتى وصلا إلى المركب، وقال: استمتعت معك، لا تؤاخذيني إن كنت تسببت في إيلامك، لم أكن أقصد، يبدو أنني دائمًا أتسبب في إزعاجك.

قالت مسرعة: أبدًا، لا تتسبب في إزعاجي أبدًا. كيف أشكرك على هذا اليوم؟ رأيت كل شيء من منظور مختلف، وتعلمت الكثير، تعرف ماذا تعلمت؟

- ماذا؟

-أنني لا أصلح مرشدة سياحية! وأنك موهوب أكثر مني بكثير.

- ليس صحيحًا، لدينا فقط طرق مختلفة للعمل. تصبحين على خير.

هل التقت أعينهما من جديد؟ هل مكثت عيناها بين عينيه فترة طويلة؟

تقهقرت بظهرها إلى حجرتها، وأغلقت الباب، وأغمضت عينيها. ابتسمت. ارتبكت وتذكرت لمسته الرقيقة على شعرها وقبلته المفاجئة، أصبحت هذه الذكرى تحتل كل الأوقات أخيرًا. غريب هذا المرشد، لم تتوقع مقابلة مثله قط. وكأنه مبعوث لها من عالم آخر... اليوم بالذات يبدو أنها تمنت لو يأخذها بين ذراعيه. للحظة تمنتها وكانت تخافه وتخاف نفسها. ولا
تدري معنى أن تريد أن تشعر بصدره وقلبه. هي لا تعرفه، ولا تعجبها طريقته في الحياة.

سمعت طرقًا على الباب، فقالت دون أن تفتح: مين؟

قرب فمه من الباب، وقال: هل تريدين البحث معي عن الأميرة غدًا وقت الفجر؟

قالت في تعجب: الأميرة؟

-التي تحولت إلى هدهد. أطرق بابك في الفجر، ونبحث معًا عن الهدهد ما رأيك؟

قالت في حماس: سأنتظرك .

ومنذ ذلك اليوم وهو يطرق بابها بعد بزوغ الفجر وهي مستعدة لاستقباله دائمًا. ترتدي كل الملابس الثقيلة التي تملكها، وتسير معه خارج المركب في بطء وترقب، لعلهما يريان الهدهد، كانا يمشيان ساعات في صقيع الفجر وهي تنتظر رؤية الهدهد بين الحدائق والصحراء. في اليوم الثالث ظهر الهدهد. أشارت له في سعادة. جلسا قريبًا منه في حذر حتى لا يخاف، لحظات كان يأكل من الأرض وكأنه يملك كل الحدائق والصحراء، ثم طار بعيدًا. ابتسمت في نشوة وارتياح لم تشعر بهما من زمن بعيد. قالت في حماس طفل وجد قوس قزح للمرة الأولى: هل أراد أن يحكي لنا قصته ويشكو من الزمن؟

فهزَّ مؤمن رأسه بالإيجاب. ولم يحاول أن يلمسها قط، ولكنه لم يزل ينظر إليها نظرات طويلة، أحيانًا بريئة، وأحيانًا لا، ولكنه كان يبتعد كلما اقتربت منه لأي سبب.

أصبح للنوم هدف جديد، ولليل نهاية متوقعة كل يوم. دقات على بابها فجرًا والبحث عن الأميرة الهدهد. ثم العودة إلى الواقع والعمل والسائحين .

بعد رحلة أسوان وإضاءة بعض الزوايا المظلمة لدى علياء وتنظيفها، تغيرت علياء كثيرًا. أصبحت أكثر كلامًا وتلقائية، وضحكاتها تتكاثر يومًا بعد يوم. بدأ الماضي يسافر بعيدًا وتفاصيل الحاضر تحتل كلَّ الأماكن. وتوقفت عن الدواء، فهي تنتظر الفجر كل يوم والانتظار يجعل الأرق ممكنًا وجائزًا، والنوم ليس الغاية، والرحلة في بدايتها، ولم تنتهِ كما ظنت. ومؤمن موجود في كل الزوايا كلما غاصت في ماضٍ، أو تأملت حاضرًا. العقل فكر كثيرًا، وتأمل واجتهد وتفانى واستنفد، وللنفس راحة في البقاء هنا، وللنفس مراد في مقابلات الفجر والبحث عن الطائر الخجول الذي تستعصى رؤيته والتعرف عليه.

الرحلة الثالثة

عند زيارة الأهرام لا بد أن يسيطر مؤمن على كل التفاصيل؛ لأنها دومًا رحلة العمر وبلوغ المنتظر بالنسبة للسائحين. ففي رؤية الأهرام رهبة وتجلٍّ لا بد من الحفاظ عليهما، ومن أجل الحفاظ عليهما لا بد من الابتعاد عن المنغصات وجشع الباعة وغبار القاهرة. كان مؤمن يرسم صورة لرحلته بدقة وإتقان، وخاصة أنها رحلة يوم واحد انتظرتها يان طوال عمرها.
عند الوصول إلى القاهرة صباحًا وركوب الأتوبيس للذهاب إلى المراد يحكي لهم عن التاريخ، وعند الوصول إلى الهدف يحكي لهم عن العمر والرحلة وانكشاف المستور.

لم تذهب معهم علياء في تلك الرحلة. وبقيت في الأقصر. كانت تتحاشى العودة إلى القاهرة، ولكن ذهبت معهم جوانا، فعلاقتها بالقاهرة كعلاقتها بالرجال، مزيج من الحب والكره والخوف والرغبة. وأتت إيريكا أيضًا، لا تستطيع أن تمنع نفسها من رؤية الأهرام كلما حانت لها الفرصة. ولكن كل تركيز مؤمن في تلك الرحلة كان على يان وزوجها. فالأهرام بالنسبة لهما أرض بكر وانتصار منتظر.

وكان جيمس زوج يان يعشقها عشقًا يتكلم عنه كل الصعيد، هذا الرجل الذي يراعي زوجته التى فقدت ساقها في حادث أو أثناء مرضها، لا أحد يعرف. ولكنه لا يلبث أن يقبلها على الملأ، يمسك بيدها ويضعها على قلبه ويقول: هي كل حياتي وأملي. لم يعتد المصريون هذه المشاعر على الملأ من رجل في هذه السن. وكانت النساء يهمسن في حسرة ويلعنَّ يوم زواجهن، والرجال ينظرون باستياء إلى هذا الرجل الذي تحكمه امرأة ليست حتى كاملة.

داخل الأتوبيس، بينما مؤمن يشرح لهما تاريخ الأهرام والأسرة القديمة في مصر وطرق الدفن والبعث والخلود، كانت يان تتأمل محيطها، وتهمس وهي تشير إلى القاهرة من النافذة: هنا العالم يجتمع بخيره وشره وكل ما يملك من تاريخ ومستقبل.

ربت زوجها على كتفها وقال: هل أنت سعيدة الآن؟

قالت وهي تمسك بيده: أسعد امرأة في الكون. كيف أشكرك على هذه الرحلة؟ أنت أحلى شيء في حياتي.

ضمها جيمس وقبلها قبلة سريعة أمام الجميع، وقال وهو يشير إلى حافة الهرم الأكبر التي ظهرت في الأفق: ها هو ذا يظهر، انظري.

أمسكت قلبها وتأوَّهت ولم تر المباني الخاوية العملاقة ولا العشوائيات التي تعج بالحياة، بل رأت حافة الغاية والهدف. وتمنت أن تتلاشى كل الأماكن ليبقى الهرم فقط وسط الخلاء.

قالت في عدم صبر: مؤمن متى نقترب منه؟

قال: لا بد من الصبر.

صفقت جوانا وقالت: ما أجمله. كلما رأيته أرتجف، مع أنني رأيته مرات ومرات. وأتمنى العيش هنا، ولكنني أخاف القاهرة ورجالها، كلها شرور. مدينة تغتصبك كل يوم. أليس كذلك يا مؤمن؟

- يعتمد على معنى الاغتصاب بالنسبة لك؟

- لا أدري. تغتصب مشاعرك عنوة، وتشعر بأنك لو وقعت في حبها تبقى معها إلى الأبد ليس لك خيار. مخيفة هذه المدينة.

انطلقوا جميعًا إلى الصحراء المحيطة بالأهرام، وأبقى مؤمن كل الباعة بعيدًا.

سارت يان بأقصى سرعة بساقها الصناعية والهواء يلفح وجهها، وصاحت: هي أكبر بكثير مما توقعت. انظر لهذا الهرم يا جيمس؟

قال: نعم كبير.

ثم نظرت لمؤمن وقالت: هل يمكن أن أقترب أكثر؟ أتسلق بعض درجاته؟

قال الزوج مسرعًا: لا. أخاف عليك.

فقال مؤمن: لا توجد مشكلة، يمكنني أن أسندك.

نظرت لزوجها لحظات فابتسم، وقال: حسنًا، ولكن ما زلت أخاف عليك.

أسندها مؤمن بيد قوية حتى تسلقت بعض الدرجات وهي تلهث ثم قالت: لماذا يبنون مقابر بهذا الحجم؟

- يخططون لكل شيء.

-أنا لا أخطط لموتي. من منا يخطط لموته؟ الأهرام بالنسبة لي هي كل الحياة، لا تمثل الموت أبدًا.

قال مؤمن: ربما هذا هو المراد. أن يبقى من الفرعون شيء حي إلى الأبد. أراد أن يعيش بعد موته وأثناء حياته. يخافون الموت مثلنا جميعًا ويعشقون الحياة.

أشارت لزوجها أن يتسلق هو الآخر، ولكنه لم يفعل. قالت : أنا أحب كل المصريين. وليس القدماء فقط. أقضي معهم وقتًا طويلًا. يضحكون كثيرًا ويحبون ويأكلون، يستمتعون بالحياة مع أن الحزن لا يترك قلوبهم.

-أنت امرأة حكيمة يا يان.

قالت في حماس: هل أستطيع ركوب الجمل أيضًا؟

قال وهو يساعدها لتنزل درجات الهرم: تستطيعين كل شيء.

قال زوجها في قلق: أنت بخير؟

فقالت: بالطبع أنا بخير. تركب معي الجمل؟

قال غاضبًا: هذا أخطر من تسلق الأهرام. حبيبتي، من الأفضل ألا تفعلي هذا.

قالت لمؤمن: يخاف عليَّ إلى أبعد حد. مؤمن، أريد أن أركب الجمل وحدي.

نظر لزوجها. بدا غاضبًا. بقي مؤمن صامتًا لا يعرف كيف يتعامل مع الموقف دون إغضاب الزوج. قالت يان مسرعة لزوجها: حبيبي، أرجوك لا تغضب. اسمح لي أن أركب. أتمنى هذا منذ زمن.

صمت لحظات، ثم رفع كتفيه، وقال: وهل أستطيع أن أرفض لك أي طلب!

ركبت الجمل وضحكت، وجرى بها الجمل حول الأهرام وهي تشهق في رهبة. كانت أمنية العمر وتحققت. للعمر معنى وبقية. وللأهرام بريق يجذب النفس ويكشف المستقبل.

عادت إلى الأقصر ووجهها مشع بالنور والراحة وهي بين ذراعي زوجها.

* * *

في اليوم التالي كان وقت زيارة معبد الأقصر. أطال مؤمن نظره إلى جيمس زوج يان. كان جيمس يكرهه. شعر بهذا ولم تكن أول مرة. شيء متوقع ويحدث كثيرًا. يغار على زوجته، أو ربما يكرهه بلا سبب، فالكره كما يعرف يحدث بلا سبب كالواقع والموت.

قال لعلياء التي تسير بجانبه: علياء، ما رأيك في زوج يان؟

قالت: يحبها جدًّا ويخاف عليها من كل شيء. ولكنني أفضل يان؛ فهي شديدة الطيبة.

ثم قالت علياء : ما أخبار جوانا ؟ أعجبتها الرحلة أمس ؟

ابتسم لها في عذوبة ولم يجب.

صمته أغضبها بعض الشيء، فأعادت السؤال بصوت حادٍّ. فقال: رأت الأهرام من قبل. تأتي فقط من أجل القاهرة.

قالت في تأكيد: هي تحب خطيبها، أليس كذلك؟

قال وهو لم يزل ينظر لجيمس زوج يان: تحبه جدًّا. ما رأيك أن نجلس اليوم بعد الرحلة على حافة المركب وأكمل لك قصة الأميرة؟ لا بد أن أغطس في المياه من جديد حتى أعرف بقية القصة.

قالت: تتعامل معي كالأطفال.

-كلنا أطفال أمام قصة جميلة.

قالت: لا، لا تسبح ليلًا من جديد.

-تخافين عليَّ؟

قالت في خجل: طبعًا. نعمل معًا، لا بد أن أخاف عليك .

-وستجلسين معي اليوم؟

تذكرت آخر مرة جلست معه وما حدث بينهما. قال وكأنه يقرأ أفكارها: هل فعلت أي شيء يجعلك لا تثقين بي طوال الأسابيع الماضية؟

قالت: لا.

-نأكل العشاء معًا؟ سأحضره لك.

لم ينتظر ردها. سار أمامها وهو لم يزل ينظر للزوج العاشق، وكان يشعر بشيء من الحيرة لضحكات الزوج وحماسه ولمساته الكثيرة لزوجته، وكأنه يمثل على مسرح رديء. اليوم بالذات بعد رحلة الأهرام أمس، كان هناك شيء مخيف في

سعادة الزوج والحزن في عيون الزوجة. لم يلاحظه سوى مؤمن. وعندما حاولت يان النزول من درجة السلم الواحدة كانت
يد مؤمن تمتد لها وليس يد الزوج. كان الزوج يسير دائمًا خطوات أمام الزوجة وكأنه يوبخها لإعاقتها، ولا ينتظرها أبدًا سوى بعد أن تختفي عن نظره ثم يصيح: يان حبيبتي أين أنت؟ وهي تبتسم وتقول في ميكانيكية: هنا يا حبيبي في طريقي إليك. كان يتكلم كثيرًا وكأنه يداري فجوة في نفسه، أو إعاقة في قلبه وكل الزيف في مشاعره وكأن الشر يكمن حوله. لم يحبه مؤمن ولم يرتح لنظراته لعلياء، وبدا له أن علياء لا تشعر بشيء.

نظر إلى يان. أطال نظره إليها وإلى الساق الصناعية المتقدمة التي ترتديها. التقت أعينهما لثوان فابتسم لها وهي تنظر إلى جسد أحمس، وكأنها تقيس ضآلة جسده بتاريخه ومعاركه. اقترب مؤمن منها، كانت يان طويلة نحيفة، ملامحها رقيقة، أصابع يدها ضامرة وباهتة تنم عن حياة متناقضة وصدمات متتالية. قال بالإنجليزية: غريب أمر أحمس، أليس كذلك؟ نجح فيما فشل فيه الآلاف قبله بهذا الجسد الضئيل، وكأنه يسخر من الزمن وملوكه. لمئات السنين تحتل الهكسوس مصر، ويأتي الملك القوي من الجنوب ليحاول أن يعيد مجد الأجداد، وبالنسبة للمصري احتلال الأرض أسوأ من ذل التعذيب، ومقتل كل الأحباب هو الهزيمة بعينها، والهزيمة تصعب على الجميع، وتصعب أكثر على القدماء، حيث الأمل ممشوق والخير بكثرة الذهب وطمي النيل. حاول الملك القوي ومات محاربًا، وحاول الأخ المغوار المقاتل، ومات أيضًا، ولم يبق للأم سوى هذا الابن الضعيف، هل له أن يحارب الهكسوس ويقضي عليهم؟ هل يكمل مسيرة أجداد انقطع تاريخهم؟ ليس للأم سوى التضحية به من أجل محاولة التغلب على الهزيمة .

-وكيف انتصر؟

-الوقت كان مناسبًا، وذكاؤه كان يفوق الجميع. في المعارك لا بد من معرفة الوقت المناسب عندما يكون العدو فاقدًا لتركيزه، ممتلئًا بفوزة لا بد من الهجوم. مات بعدها بقليل، فلِمَ العيش بعد الانتصار؟ النهاية دائمًا بعد الانتصار. أما الهزيمة فحقيقة مستمرة .

نظرت إليه. ابتسمت، وبدأت اللحاق بزوجها، ولم تستطع، فقد كان يركض بسرعة كبيرة هذه المرة. فقال مؤمن وهو يراها تقفز بصعوبة لتلحق بالزوج: لا تجري هكذا، أتمنى أن نكمل كلامنا قليلًا .

لم تترك الابتسامة وجهها، وقالت: أحب هذا النهر، لنسير معًا.

كان الزوج يتكلم مع علياء في حماس، ويسألها وهي تستمع وتجيب في هدوء. رفع الزوج ذراعه ووضعه على كتف علياء، وقال بالإنجليزية: تعرفين الكثير. كنت أظن النساء في بلادكم لا يعرفن كل هذا. لا بد أنك مختلفة كل الاختلاف.

ابتعدت علياء عنه في رفق، وقالت: نساء بلادي يعرفن أكثر مني كثيرًا، وينجحن أكثر مني بكثير.

فقال جيمس: اعذريني يا علياء. أنت جميلة بشعرك الأسود وبشرتك السمراء. لا أتغزل فيك، أقر حقيقة فقط. أنا أعشق زوجتي. تعرفين حياتها، كانت كلها شقاء في الصين. جاءت إلى بلادي لاجئة ووجدت الأمن والحرية والمساواة. أنت لا تعرفين شيئًا عن بشاعة النظام في الصين في ذلك الوقت. قابلتها وأنا أعمل لمساعدة اللاجئين، أحببتها من أول لحظة، وانتشلتها من كل الذل والهوان. استنشقت عبير الحرية والنقاء. تعلمت معي أن الكلام في السياسة ليس جريمة تنهي العمر، وأن الاحتجاج حق إنساني، وأن المساواة فكرة تسيطر على بلادنا .

قالت في شيء من عدم الارتياح: زوجتك هدية من السماء.

-أعرف، هي كذلك .

أمسك مؤمن بذراع علياء فجأة، وجذبها بعيدًا، ثم تركها، وقال في قوة: إذا كنت لا تعرفين كيف تصدين المعجبين فلا بد أن تبحثي عن عمل آخر.

سارت بجانبه في ذهول، فأكمل في غضب: عندما يلمسك عميل يا صديقتي لا تبتعدي فقط بل زيحي يده في قوة حتى يفهم أنك لا تخجلين منه بل تكرهينه. تفهمين؟

رن جرس الهاتف... نظرت للرقم، ثم أغلقت الصوت كما تفعل دائمًا، فقال في عصبية لم تعهدها فيه: وقت العمل تغلقين تليفونك تمامًا!

قالت: لم كل هذا الغضب؟

فقال في نفس الحدة: علياء، هل تنتظرين هذه المكالمة كل يوم؟ حتى تعرفي أنه لم يزل يفكر فيك؟ لا بد أنه لم يزل يفكر فيك، هل يرضي غرورك هذا؟

قالت في غضب: بالطبع لا أنتظر مكالمات..

-هناك خاصية في التليفون بديعة يمكنك من خلالها التخلص من هذه المكالمات نهائيًّا، أم أنت تحتاجين لرؤية الرقم كل يوم ليطمئن قلبك؟

قالت في تحدٍ وهي تعطيه تليفونها: تخلص منها إذن؟

أمسك بالتليفون، وتركها، واتجه مرة أخرى إلى يان، فقالت في دهشة: عن ماذا كنت تتكلم مع علياء؟

لم يجب، كان ينظر إلى تليفونها، ويعد كمية المكالمات من نفس الرقم، ثم مسح الرقم نهائيًّا، ومنع استقبال مكالمات منه. اتجه لها، مد يده بالتليفون وهو لا ينظر إليها فأخذته منه، ثم تركها، واتجه ليان.

ابتسمت يان وبقيت صامتة بقية الطريق.

* * *

عند وصولهم للمركب اتجهت يان وزوجها إلى غرفتها، وسارت علياء في اتجاه غرفتها، فقال في قوة: علياء لن تعملي مع هذا الفوج مجددًا .

نظرت إليه، وقالت في تحدٍّ: لا أفهم. تفصلني إذن؟ لا بأس سأرحل غدًا.

-لا أفصلك، يمكنك العمل مع فوج آخر. غدًا سأحدد أي فوج .

-وأنا لا أحدد أي شيء؟ لا أفهم.

-طلب مني والدك أن أحافظ عليك هنا، وأنا أفعل هذا.

ضحكت في سخرية: تفعله بكل ضمير.

-ماذا فعلت لأستحق السخرية؟ تعذبينني لأنني شربت بعض الشيء وقبلتك قبلة بريئة مرة واحدة؟

قالت في ثبات ووجهها بدأ في الاحمرار: لم تشرب. أنت لا تشرب .

-شربت ذلك اليوم.

-لم تشرب.

نفخ وقال في عدم صبر: ماذا تريدين؟

-تغار؟ أهذا كل ما في الأمر؟ هذا رجل في سن والدي؟

ضحك في جفاء وسند على باب غرفتها قائلًا: نعم هذا ما يخيفني. أغلقي بابك جيدًا ونامي الآن. سأبعث لك بالطعام إلى غرفتك.

-لا أصدق، تحبسني أيضًا؟ تتصرف كصعيدي أصيل، لكن أن تكون أنت على علاقة براقصة مخطوبة لا يوجد فيها أي مشكلة!

تنفس الصعداء، ثم قال: لِمَ أغار؟ لا أعرفك أصلًا. أنا فقط أحافظ على فتاة وصاني عليها والدها، وعلاقاتي ليست من شأنك أبدًا.

هزَّت رأسها بالإيجاب. لم يكن بهذه القسوة من قبل ولا كل هذا الغضب. بدا لها أنه نسي ميعادهما على حافة المركب أو ألغاه، لا تدري. غضبه كان يطغى عليه. فتحت باب غرفتها، وقالت: حسنًا. تصبح على خير .
تردد لثوان، بدا أنه يريد أن يقول شيئًا آخر، ثم قال: تصبحين على خير.

* * *

كان مؤمن متمددًا على سريره عندما رن هاتف الغرفة وكانت يان. فاجأته بالمكالمة، قالت إنها تريده في شيء مهم الآن.

ترك غرفته ونزل الدرج إلى حيث غرفتها، سمعت صوت أقدامه على ما يبدو، ففتحت الغرفة في عناء. لأول مرة يراها بدون الساق الصناعية. كانت ترتدي بلوزة و شورت تظهر منه بقايا الفخذ المبتور جيدًا. سارت بقفزات سريعة إلى السرير وجلست عليه وقالت في حسم: أغلق الباب.

حاولت القيام من جديد، مد يده ليساعدها في حيرة. قالت في صوت قوي: أشكرك لا أحتاج إلى مساعدتك.

اتجهت عيناه بلا إرادة لموقع البتر. أي حادث هذا ومن تسبب فيه؟ طأطأت رأسها وهي جالسة على السرير في سكينة تخيفه إلى أبعد حد. بدأ يساوره الشك لأول مرة ولم يكن يفهم لماذا تريده. سكينتها أفزعته فزعًا لا يتذكر أنه شعر به من قبل. هالة من الضباب تحيط بها تتسع لتبتلع كل شيء. قال في شيء من الشفقة: أنت امرأة مختلفة وشجاعة.

قام واتجه إلى إبريق الشاي، وسألها ما إذا كانت تريد شايًا.

قالت وهي تبتسم: أشكرك. وأحب شايك الجنوبي.

سكينتها لم تزل تقبض نفسه.

التقت أعينهما، رأى حزنًا عميقًا وصبرًا جبارًا،. مدت يدها له قائلة: هات يدك يا مؤمن.

وضع الشاي أمامها ثم أمسك بيدها الباردة كبرودة الثلوج والأموات.

-لماذا تخاف؟

قال بلا تردد: لا شيء فيك يخيف. أنت جميلة فقط.

ابتسمت: هذا الإطراء يعني أنك تريد شيئًا؟ وماذا أملك لأعطيه لك؟ أنت طموح وتعشق المال. هكذا أراك، ولكن كيف تراني أنت؟ مشوهة أم امرأة عجوزًا تريدك؟ أم صفقة كصفقاتك؟

فتح فمه، فأكملت وهي تقاطعه: ربما لو عاد بي الزمن. كان لا بد أن آتي في بداياتي وليس نهاياتي. تفهمني؟ لم تنصفني الحياة قط، أذلني وطني، وأذلني وطن الغرباء. نفس القسوة، ونفس الظلم، ومع ذلك أحن إلى الأجداد. في قسوة الوطن حنان خفي تفهمه وتستسيغه، وفي قسوة الغربة تيه وصقيع، لم تنصفني الحياة قط. ومع ذلك أخشى الموت، وما يخيفني حقًّا هو أن أدفن مع زوجي أو في بلاده.

قال: ولم التفكير في الموت؟

قالت في تسلية وهي تبتسم: ألم تلاحظ بعد؟ أم تتجاهل مشاعرك؟ لا بأس. فيمَ تطمع؟

قال: لا أطمع في شيء؟

ضحكت وقالت: عهدتك تنظر إلى القلوب وترى الضعف الكامن فيها. كنت أفعل نفس الشيء. كلانا كان يلهث وراء المستحيل، يطمع فيه ويقاومه ويروضه، كلانا ضحية الطمع في الأماني التي لم نولد من أجلها. أيها المرشد، اتركني أرشدك إلى ضعف القلوب. هات يديك وتعالَ هنا بجانبي.

قال في تأكيد: أعذريني لا يجوز.

ضحكت وقالت: تخاف مني أم من البتر في جسدي أم من بتر روحك؟

تردد قليلًا، ثم جلس وهمس: لا أخاف منك. كيف أخاف من كل هذه الطيبة؟

-تشفق علي.

-ليس من أجل البتر.

-من أجل الأماني المستحيلة؟ تفهمني، أليس كذلك؟

قال في قوة: أفهمك.

قالت وهي تمسك يده: إذا أنجبت ولدًا كان سيكون في سنك ربما. هل فهمت الآن ما يحدث لي؟ احتضر يا مؤمن، هذه آخر رحلة لي ثم أعود للأجداد والوطن وكل ما هو جميل.

نظر لعينيها وصدقها دون شك.

قالت في هدوء: يخيفك الموت؟

-الموت لا يخيفني، الحياة تخيفني.

-ما رأيك في خمسين ألف دولار في حسابك الآن؟ أحوِّلها من حسابي في اللحظة والتو لحسابك هنا، عبر الكمبيوتر، ستحل بعض مشكلاتك، أليس كذلك؟

قال في صوت خافت: ماذا تريدين مني مقابل هذا؟

-فقط تجلس معي حتى الصباح نتكلم معًا.

-زوجك في الحجرة المجاورة.

-لا تخشَه. لا يبالي. يكرهني من كل قلبه، هذا يسعدني بعض الشيء.

ضحكت وهمست: اطمأنَّ قلبك بالمبلغ؟ كنت مثلك. أخبرتك أنني نظرت إلى عينيك ورأيت نفسي. مثلك تمامًا، اطمأنَّ قلبي بالمال، وجواز السفر الغربي، والشمس والخضرة، والمساحات الشاسعة، والحرية والمساواة. إلى حين. أنت أيضًا... تبحث عن المستحيل، ولا ترضى بالمكتوب؟ مختلف يا مؤمن .

أشارت إلى الكمبيوتر على الطاولة، وقالت: هات الكمبيوتر، أريدك أن تشرح لي كل شيء عن تاريخ هذا البلد، تكلم معي حتى بلوغ النهار وانكسار الظلام. في الحياة ظلمة موحشة، وفي ضوء الموت شمس لا تفنى.

بدأ مؤمن في الحكي حتى الصباح.

ترك غرفتها في الصباح، والفزع لم يترك قلبه. ولم يكن متأكدًا من سبب هذا الهلع بداخله. ألأنها فتحت قلبه وكشفت كل ضعفه، أم لأنها كشفت قبح البشر واستهتار الأوطان؟ لا يعرف، ولا يقين بعد يومه هذا.

* * *

بقي متجهمًا طوال الصباح، ثم ذهب إلى عمله مع الوفد الألماني، ولم ير علياء أو يان. وعندما عاد في المساء كانت علياء جالسة ويدها تسند خدها. ما إن رأته حتى قالت مسرعة: مؤمن، نحتاج مساعدتك.

قال في وجوم: ماذا حدث؟

-زوج يان يقول إنها اختفت منذ الصباح، أخبرته أنها لا بد أن تكون في جولة في السوق، ولكنه قلق عليها .

ردد في تلقائية: اختفت؟

-بعد الإفطار. كانت تفطر معنا، وكانت سعيدة إلى أبعد حد، ثم خرجت ولم تعد، والساعة الآن الثانية عشرة بعد منتصف الليل. أشعر بالقلق أنا أيضًا. الأقصر آمنة، ولكنها.. تفهم قصدي.. خرجت دون الساق الصناعية، تتكئ على عصا، ولم تعد.

اتجه نحو الباب، وقال: سأبحث عنها.

خرجت وراءه: لا بد أن آتي معك.

لم يعترض. سارا معًا بين المراكب النيلية، في سكون الليل وهو لا يتكلم، حاولت علياء فتح الحديث معه، ولم يجب.
قالت: هل ما زلت غاضبًا مني؟

قال وهو ينظر حوله باحثًا: لا. لست غاضبًا منكِ.

بحثا طويلًا ساعتين ربما. ووجداها أخيرًا في مكان غير متوقع.

شهقت علياء وفتحت عينيها، نظر هو إلى مصدر فزعها وأدار وجهها بقوة. في صندوق القمامة كانت جثة يان بعيون منطفئة، تحلق في الفضاء وساقها الأخرى مبتورة أيضًا، ووجهها مجروح بسكين بارد، وجسدها مليء بكدمات وحرائق فوق تحمل العين.

ارتعدت علياء بين ذراعيه وهي تردد: لا أستطيع الوقوف.

جلست على الأرض، وجلس معها .

أغمض عينيه وهو يتوقع الأيام القادمة، ويعرف سر الفزع الكامن والموت القريب.

كانت علياء تلهث وهي تتكلم مع الضابط وتحكي له عمَّا رأت. أحال الجثة إلى الطب الشرعي، ثم سأل في فضول: هذه الصينية تعمل في السوق الصينية في الأقصر أم في المطعم الصيني؟

قال مؤمن: هي ليست صينية، جواز سفرها أسترالي.

بدا الفزع على الضابط. صمت لحظات، ثم قال: أسترالية. مصيبة إذًا على كل البلاد!

بقيا داخل القسم ساعات، وأخذ الضابط أقوال الزوج، ثم ناداهما من جديد، ونظر إلى مؤمن قائلًا: هذه خطيبتك؟

قال: زميلتي في العمل.

ثم قال مؤمن لعلياء: اطلبي والدك ليأخذك من هنا.قالت في حسم: لن أفعل.

قال الضابط في وجوم: زوجها قال كلامًا غريبًا. قال إنها كانت على علاقة بك وقضت ليلتها معك أمس.

سلطت علياء نظرها إليه تنتظر الإجابة والنار تحرق أعماق النفس.

قال في صرامة: قضيت ليلتي معها، ولكن لم يحدث شيء بيننا، هي مريضة، كانت تحتضر.

نظر إليه الضابط وهو لا يصدق كلماته على الإطلاق، وبدا للضابط أن الزوج قتل زوجته وعذَّبها لأنها خانته، وأن مؤمن كاذب، وأن الجريمة واضحة بلا شك، ولكن تردد الضابط في القبض على الزوج؛ فهذا قرار سياسي.

قال جيمس زوج يان إن زوجته لم تحبه قط، وأنها تزوجته لتحصل على الإقامة، بينما تزوجها هو لأنه يحبها من قلبه. عاش في شقاء معها، وتمنى أن يرق قلبها يومًا له، ولم يرق. كانت باردة ومتحجرة، ولم تقدِّر يومًا عطاءه وحبه. رفضت الإنجاب منه لأنها تكرهه. وخانته من قبل. هو متأكد من أنها خانته من قبل. لم يستطع إثبات هذا، ولكن قلبه كان يعرف. كان يود أن يبدأ معها من جديد، ولذا فاجأها بهذه الرحلة وتمنى أن يشاركها فيها، ولكنها فضَّلت أن تُشارك المرشد فيها على أن تشارك زوجها .

لم يعرف الضابط بعد لماذا فقدت يان ساقها الأولى، ولا لماذا فقدت ساقها الثانية .

سأل الزوج عن مكانه وقت الحادث، وسأل الجميع عن المركب، ومرت الليلة في القسم، ثم أفرج عن مؤمن وعلياء. خرج مؤمن، نظر إلى العسكري، كان صديقًا قديمًا. سأله: هل خرجت نتيجة الطب الشرعي؟

ثم همس في أذن العسكري، ورحل من القسم، وعلياء بجانبه لا تنطق.

قال مؤمن : اطلبي والدك وارحلي من هنا. الآن. هيا.

قالت في سخط: لمَ فعلت هذا ؟ من أجل المال؟ لا أصدق!

قال في إصرار: لم أفعل شيئًا.

-ثمن باهظ لليلة واحدة. يا إلهي أتمنى الموت الآن.

قال في إصرار: لم أفعل شيئًا. ولم يحدث شيء بيننا.

اتجه بها إلى فندق قريب. حجز لها غرفة، ثم قال: هيا اطلبي والدك.

أمسكت بالتليفون. طلبته، سمع مؤمن صوته وهو يصرخ فيها. قال إنه سيأتي في الغد على أول طائرة.

قال مؤمن وهو يتجه إلى باب الفندق: حاولي النوم. ليس لك علاقة بكل هذا.

تمتمت، وصورة المرأة المبتورة تحتل كل الأفق: لا تتركني .

نظر حوله ثوانيَ، ثم اتجه معها إلى الغرفة، فتحها، وقال: سأبقى معك بعض الوقت .

وضع يده على جبهته، ونظر إلى الأرض والتراب الذي يملأ الغرفة.

همست وهي تنظر إليه: هل قتلها زوجها؟

لم يجب.

قالت في مرارة: قضيت ليلتك معها. لا أصدق. كنت تبحث عن الضعف في الآخرين، وضعفك هو المال. أليس كذلك؟ ثمن كبير لليلة واحدة ما دفعته.

قال في صوت خافت: لم يحدث شيء. ولن تصدقيني. فعلت ذلك من أجلها هي.

قالت في إصرار: ومن أجل المال.

-والمال أيضًا.

أخذت تهز رأسها وكأنها تحاول إدراك الحقيقة: كانت سائحة مثلي ومثل غيري، وأنت تهتم بكل عملائك. يا إلهي، ما هذا الجحيم! حياة بلا أخلاق. كل شيء يباع ويُشترى من أجل المال. المشاعر، أجساد العباد، التماثيل التذكارية، حتى الآثار والقصص. ربما أتمنى الموت الآن. سئمت الحياة بكل قبحها.

نظر إليها وقال وكأنه لم يسمعها: لا بد أن تصدقيني. لم يحدث شيء بيننا. كانت تحتضر. كانت مريضة وعلى وشك الموت. لن يصدقني أحد، ولا أدري ماذا سيحدث. أنت لا بد أن تصدقيني. سيثبت الطب الشرعي هذا. في البداية على الأقل. أعني في التقرير الأول قبل تدخل أحد.

قالت في ثبات: ماذا فعلت معها حتى الصباح؟

-جلست بجانبها، وقصصت عليها قصصًا عن مصر وتاريخها.

-أي طفل يصدق هذا؟ ولماذا بقيت معها حتى الصباح؟

-لن تفهمي.

-حاول أن تشرح لي.

-لأنها تحتضر وحيدة وسط كل هذا البغض والعفن حولها.

نظرت إليه من جديد.. وصورة جثة يان تفقدها القدرة على التركيز، وتشوش كل الأفكار. ومن يدري؟ ربما يقتلان معًا. ربما.

قالت في صوت خافت: ولماذا يقتلونها وهي تحتضر؟

-لا أعرف.

-كنت تعرف كل شيء. مَن قتلها؟

-لا أعرف.

-لا بد أنه زوجها.

-ولِمَ يقتلها وهو يعرف أنها تحتضر؟

تذكرت جسد يان الممزق والسكين التي قطعت أطرافها. ارتجفت واحتضنت جسدها والفجوة تظهر بداخلها من جديد، والوحدة تطغى على كل شيء. انحنت وتجمدت مكانها.

اقترب منها وأمسك بذراعها. نظرت إليه في حيرة، لا تدري أتهرب منه، أم تترك الزمام للقلب فتحترق وتحترق الفجوة التي تحفر النفس وتفرغها من الداخل؟ دفع بها إلى صدره. وازدادت قبضته عليها وكأنه يعتصرها. لم تبال .

قال: لا تخافي. إذا أرادوا قتلنا كانوا قتلونا. علياء، لو طلب أحد منك الشهادة، اشهدي بما يريدون، تفهمين؟

لم تجب. اختلطت كل الأمور.

هل يكذب؟ وإذا كذب فماذا تبقى لها في الكون؟ ولِمَ الالتئام لو كان يسبق الموت؟

قبل رقبتها وهمس بين قبلاته: لا أكذب، صدقيني، أريدك أن تصدقيني.

لم توقفه ولم تستطع. كانت تشتاق إليه منذ زمن، ولا تعرف كيف تصف شعورها الطاغي عليها الآن.

قال في إصرار وقبلاته تشعل النار بداخل فجوة النفس: علياء، تصدقيني؟

هزت رأسها بالإيجاب. تنفس الصعداء، ثم أحاط وجهها بيديه، ونظر إليها، ثم همس: لا بد أن توافقي على كل ما يقولون، أو اصمتي، واتركي لي الكلام.

قالت في ثبات: لا أقول سوى الحق دائمًا.

قال في ميكانيكية: لم تتعلَّمي شيئًا؟ ما الذي نفعك بقول الحق؟!

نظرت إليه في دهشة: هل تعرف شيئًا عن مشاكلي؟ كيف؟

- من صديق عائلتك بالطبع.

- آه ..

ثم قالت والعقل بدأ العمل من جديد: ولكنه لا يعرف.... لا أحد يعرف.

دفع برأسها إلى صدره. ولم يجب.

ألصقت صدرها بقلبه، وألصقت خدها برقبته والنار تحرق كل الفجوات، والآلام تضعف الإرادة، وكأنها كانت تنتظر لمساته عمرًا. للخوف جرأة ليس بعدها جرأة.

قبلت خده، رقبته في رقة، والقلب يخفق ويتمنى .

هنا الآن في هذا الخندق وهذا الدمار. تبدو أنها أصبحت له. كيف لا يدري؟!

سأل فجأة وهو يضمها أكثر: لماذا تركت خطيبك؟

-باع نفسه. كيف لي أن أحيا مع من باع نفسه؟ من رضي بالفساد والظلم. كيف عرفت هذا أيضًا؟

ابتسم في مرارة: ولم تبقين بين ذراعي؟ خائفة؟

أحاطت عنقه بيدها، وهمست: لم تبع نفسك قط؟

قال في استهزاء: قط؟! سأبيعها في التو واللحظة، ونبيعها كلنا كل يوم، أي عالم تعيشين فيه؟

قالت مسرعة: لا أفهم لماذا تدافع عنه؟

- أدافع عن نفسي.

أبعدها عنه بعض الشيء، ثم مر بيده على وجهها، وكأنه يتأكد من أنها حيَّة أمامه، جسد يستطيع لمسه، واقترب منها، وقبل خدها قبلات كثيرة، ثم قبل شفتيها في لهفة، لم تعترض. أذهله وأدهشه استسلامها. لا بد أنها خائفة كثيرًا.

أحاط وجهها بيديه، نظر حوله، وكأنه يتأكد أنهما وحيدان في الحجرة، ثم مر بأصابعه على شفتيها، واقترب من فمها في بطء، وقبلها قبلة طويلة بدأت بريئة، ثم أفزعتها عندما بدأت تخترق كل الحواجز، وتوقظ الشهوة في صدرهما معًا. دفعت به في ارتباك لثوان وهي تنظر إليه ولا تدري ماذا تقول.

فاقترب منها من جديد، وهمس: لا تخافي مني، ولا تخافي من مشاعرك .

قبلها مرة أخرى، وعندما أفزعتها القبلة هذه المرة لم توقفه. ضغطت على كتفه وكأنها تنتظر منه أن يشرح لها ما يحدث في النفس والجسد، فضمها أكثر. كانت تشتاق إليه، ولا تفهم كل الارتباك في الحقائق والأحداث، وكأنها قبلة انتظرها دهرًا ولم يكن مستعدًّا أن ينهيها قط. فلو كان العمر سينتهي الآن فلْينتهِ إذن وهي بين ذراعيه. ماذا حلَّ به؟ ارتبك واقعه أيضًا.

ترك فمها، ودفع بها إلى السرير، وقبل شفتيها من جديد قبلات قصيرة. استلقى بجانبها، أخذها بين ذراعيه، وضعت يدها على صدره. لا يدري لتدفع به أم لتبحث عن قلبه. انتظر ثواني ثم قال: أنقذي نفسك دائمًا.

بدا لها أنه يذكِّر نفسه. قالت وعقلها مشوش، والأحاسيس الجديدة تطغى على كل شيء: نعم أحاول دائمًا أن أنقذ نفسي.

أمسك بيدها على صدره برهة وهو ينظر إليها، بدت مترددة. والقلب يختلج بمشاعر لا تعرفها ولم تعتدها. بدأ يفتح أزرار قميصه، خلع قميصه، وضع يدها على قلبه. ظهر الفزع عليها لثوان، لم تلمس رجلًا هكذا قط، ولم تلتصق برجل هكذا، ولم تقبل رجلًا قبلات كهذه. ولكنها رأت الموت اليوم، أليس كذلك؟ ابتعدت عنه، وأزاحت يدها من على صدره وهي تحاول أن تكشف الغبار عن العقل التائه، وتمتمت: دائمًا أحاول إنقاذ نفسي، فلو خسرت نفسي ماذا يبقى لي؟

أمسك بيدها، قبل كفَّها، فنظرت إليه والشوق بينهما طاغ على كل شيء.

لو أطفأ شوقه ولو مرة ربما ينتهي هذا التوق إلى الملائكة أصحاب الكون. لا بد أن يطفئ شوقه اليوم. فغدًا هلاكه لا محالة.

وضع يدها على صدره مرة أخرى. وهو يقول: لا تخجلي مني أبدًا.

لم تنتزعها هذه المرة .

مرَّت بيدها على صدره، شعرت بقلبه ينتفض بين يديها، نظرت إليه في ارتباك، وكأنها تطلب مساعدته في فهم مشاعرها ولهفتها.

اقتربت منه وقبلت صدره في حنين يمتد إلى كل الجسد، وألصقت خدها به، ووضعت كفيها على كتفيه ولم تتحرك، بدا لها أنها بين عالمين، وأنها تريده بقوة حزنها وهزيمتها، أراحت رأسها على صدره وهي تريد أن تختفي بداخله، وكان يمرر يده على جسدها وكأنه يريد أن يتذكر كل جزء فيه. مر بيده على فخذها وصدرها. استكشف كل جسدها، وهي تدفن رأسها داخل قلبه، لا تريد رؤيته، ولا مواجهة ضعف الإرادة في لحظات اللهفة والخوف. ما يفعله بجسدها سحر يطمس كل الآلام، ويشعل كل الشرايين التي باتت باردة ومملة. أحاطت عنقه بذراعيها وأصابعها تضغط على رقبته. كان الكون يتهاوى أمام عينيه. الصبر فقد طعمه، واللهفة عمر طويل، وما تبقى قبل أن تصبح له للأبد، قليل. لو أصبحت له فلا رجعة في هذا، ولن تستطيع الفرار أو النسيان. عمره قصير ربما، ورؤيتها ستستعصي عليه بمرور الوقت. لو أزاح كل هذه الملابس بينهما، لو انصهرت بداخله، سيستقيم العالم اليوم على الأقل .

لا بد أنها تمتمت بشيء لم يسمعه، قالت مرة أخرى: مؤمن. هل تسمعني؟ لا بد أن نتوقف.

تجمد مكانه وكأنها سحرته. هل يكرهها أم يشكرها أم يعتصرها انتقامًا من عمره الضائع في الشوق. تستحق أن يعتصرها الآن فلا هي تدري بناره ولا تعرف شيئًا عن ماضيه .

كانت ترتجف بعض الشيء، ولم يكن متأكدًا هل هي خائفة منه أم مِنَ القاتل أم من نفسها؟ لم يكن متأكدًا من شيء.

لماذا تستسلم له بهذه الرقة المميتة؟ ولماذا يشعر بهذا الشوق في أنفاسها؟ ولماذا توقفه وقت اقتراب الاكتمال وانكشاف الشمس لطالب المعرفة.

بقي مكانه لحظات وهي بين ذراعيه لا يتحرك، يتمنى أن تخمد نار لم تخمد قط. كانت ناره في الماضي طوع إرادته وأصبحت خارج نطاق كل الإرادات اليوم .

حاولت أن تقترب منه من جديد، فأبعدها في رفق وقال: لا تفعلي هذا. أرجوك.

همست: أنت غاضب مني؟

قال في حسم وأنفاسه تتسارع: لا. لست غاضبًا. كيف أغضب منك؟ لا تصعبي الأمر علي.

ثم أكمل: لا تندمي على ما حدث بيننا. عديني مهما مَّر الزمان. لا تندمي ولا تنسيه.

جلس وحملها معه، مرَّ بيده على شعرها، ثم انتزعها من بين ذراعيه .

ابتعدت عنه، نظرت إلى وجهه وأنفاسها تتدافع، وعيناها تعج بالخجل والحيرة، وقالت: تتكلم وكأننا سنموت الآن.

-ربما. ربما لا..

ضمَّها مرة أخرى، فهمست: مؤمن أعتقد أنني... أنني...

قاطعها وهو يقبل شعرها: لا تنطقيها. ليس الآن وليس هنا.

صمتت وقبض هو على يده في غيظ من نفسه ومن الكون ومن البشر أجمعين. كان يكره نفسه وعمره ويكرهها؛ لأنها استوقفته في هذه اللحظة قبل الوصول والنجاة. تفعل هذا دائمًا. ولو قالت أحبك، ماذا سيحدث؟ ستنكشف كل الحقائق، ويعود العمر إلى صوابه، وتعتدل الأقدار، وينتهي الكون. ماذا سيحدث؟ سيمتلكها كما كان يحلم لسنين، كما كان
يشتاق بلا أمل شوق مراهق خجول. ولم لا؟ وكأنه اعتاد معاشرة الراقصات والزواج من المحافظات الصالحات، وتبقى علياء خارج نطاق الممكن، تبقى كلحظات العشق لا يمكن تسجيلها ولا الإبقاء عليها. وكان الواقع يعبث به ويلعب معه بأحلام المراهقة وسنوات الغضب وأطماع البراءة الساذجة.

اتجهت في بطء إلى صدره، ثم وضعت رأسها على بطنه، وطوقت صدره بذراعيها، وقالت: أنا متعبة. أخاف البقاء هنا وحدي. لا تتركني حتى الصباح .

أحاط رأسها بيديه وكأنه يدخلها بداخله، وساد الصمت. لم تكن تعرف مدى عذابه في تلك اللحظة ولا مدى صعوبة بقائها بين ذراعيه دون أن يطفئ شوقه. كانت كل قسوة البشر مجتمعة. كل الأنانية وكل الجراح. لا هو يقوى على تركها، ولا هو قادر على تهدئة الشوق المشتعل الآن وإلى الأبد. كان وما زال، ليتحمل العذاب، فهي تستحق هذا منه. هي، برقتها
وكل حنانها وشوقها العارم الذي شعر به في ارتجافها وأنفاسها .

بدأت أنفاسها تهدأ هدوء نوم عميق.

لم يتحرك. قبّل شعرها، أحاط أذنيها بيديه وكأنه يخاف عليها ممَّا ستسمع وترى، وكأنه يريد أن يحميها من كل الكون. أو ربما لا يريدها أن تسمع كلماته في اللحظة والتو.

وكان يتمتم بكلمات. قال: أحبك. أعشقك. أحبك منذ بداية العمر.

والعالم توقف والحياة كفت عن الكلام. والرواة توقفوا عن الحكي، ولم يبق سوى هذه القصة التي كتبها وحده في ماضٍ بعيد.

علياء. هذا الحب الوحيد الذي لم يبدأ ولم يكتمل.

أميرة الكون التي ينصهر جسدها بين حنايا النور، فلا يمكن لمسها ولا الاستحواذ عليها. وكان هو الفتى الجنوبي الأسود، ينظر إليها من بعيد، ويمد يده فتخترق نورها ولا تلمسها. علياء.

* * *

الباب الثاني
في زوايا الحقيقة

الزاوية الأولى

عزيزتي نورما:

الأقصر أصبحت كالمدينة المهجورة. فرَّ السائحون وكأنه يوم القيامة. الجريمة تهز المدينة الجميلة، ولا أحد يعرف الحقيقة. يخيل إليَّ أن للحقيقة أربع أو خمس زوايا، ما زلت غير متأكدة. سمعت الآتي:

يقولون إنَّ يان كانت تعيسة مع زوجها أشد التعاسة، وإنه هو السبب في إعاقتها، لا أحد يدري كيف، جاء بها إلى هنا لقتلها، مجرم محترف. وعندما شعر بالخوف؛ لوَّح بجواز سفره الغربي، وترك البلاد، ويبقى الضغط على مصر لمعرفة الفاعل، والفاعل هارب بجريمته، فقد عرف كيف يختار المكان والزمان. هكذا يقول البعض.

يقولون أيضًا إنَّ يان كان لها أعداء من بلادها القديمة، حيث الانتقام بلا رحمة، والثورة لا تغتفر، وأعداؤها استغلوا وجودها هنا لقتلها؛ كانت تتبع جماعات سياسية تريد تغيير نظام الحكم.

ويقولون: يان أتت إلى مصر كجاسوسة تريد فض الفرح وقتل المدعوين. تتساءل وتتكلم، وتدعو للغضب، والغضب خطير على كل الأنظمة، ولا إنقاذ بعده. كان لا بد من التخلص منها. تسأل الكثير من الأسئلة وتوقظ الماضي وتتساءل عن المستقبل، وتدعو إلى التمرد والكراهية بين أفراد الوطن المتحابين دومًا الراضين إلى أبعد مدى. كان لا بد من التخلص منها
حتى تكون أسوة لمن تسول له نفسه المساس بحب المواطنين بعضهم لبعض.

وآخرون يقولون: إنَّ من قتلها ينتمي لجماعة إرهابية، هدفها التنغيص على النظام وإحراجه، وقطع أرزاق العباد، وخراب البلاد والعالم أجمعه، جماعات تقضي على كل من لا يستسلم إلى ما يأمرون به ويريدون.

وآخرون أكثر رومانسية يقولون: إن يان رمز لكل ما هو جميل في هذا الكون، لم تفقد إنسانيتها وسط كره زوجها وتشوهها، أبقت على الخير بداخلها من خلال حبها للناس والعطاء المستمر. يان كانت تمجد الضعفاء والأشقياء وتكره الأقوياء والأغنياء. كان لا بد من التخلص منها من قبل كل البلاد والعباد.

شيء محير أمرهذا القتل القاسي لامرأة لم تؤذ إنسيًّا.

ما رأيك يا نورما؟

أجابت نورما بعد دقائق:

وكيف حال المرشد السياحي من كل هذا؟

فكتبت إيريكا: اختفى فجأة. لم أعد أعرف عنه أي شيء. ولكنني ما زلت أبحث.

* * *

كان صوت والدها مستقرًّا وهو يتكلم دون انقطاع من مطار الأقصر إلى بيتهما في مصر الجديدة. وحتى عندما دخلت البيت كان يكمل لومه وسخطه عليها: كل قراراتك خاطئة، لا أفهم لماذا تريدين أن تكوني سبب تعذيبي طوال عمري؟ صممت على الذهاب إلى الأقصر، وعشت مع حزمة من المنحرفين والصيع، وتركتك وقلت حريتها ومستقبلها. تحتاج إلى تغيير
الجو، وأثق في ابنتي، لن تفعل شيئًا أحمق. فلا بد أن والدتها علمتها أي شيء قبل الموت. لا أفهم هل تفعلين هذا بنية تحطيم مستقبلك؟ ها نحن أولاء متورطون في جريمة قتل. لا بد أنَّ هذا المرشد المنحرف عاشرها وقتلها، ماذا تتوقعين من هؤلاء؟ لا أدري هل ستكتب الجرائد عن الفضيحة؟ سمعتنا انتهت، حتى خطيبك لن يقبل بالعودة إليك. سأتكلم معه
غدًا، لا بد أن أصالحه وأرجوه الزواج منك. هل تفهمين؟ تسمعين؟

لم تكن تجيب على الإطلاق، فأكمل: لم أر قط أحدًا مثلك يفشل في كل شيء، يأخذ كل فرصة للنجاح ويلقي بها في البالوعة. انظري إلى فشلك ونجاح زملائك؟ أمك كانت تدللك، هي السبب في هذه المأساة. بعد التعيين في الجامعة

والخطبة لمن اخترته أنت، ظننت أنك أخيرًا نضجت، ثم ماذا؟ يتم إيقافك عن العمل وتتركين خطيبك. حتى الاختيار الوحيد الجيد
في حياتك تتركينه. لماذا تركتينه؟ رجل من أفضل الرجال، مدرس مساعد، وزميلك، ومن عائلة كبيرة. كيف تفكرين؟ هل لديك عقل للتفكير؟ أنت مصيبتي التي أعطاها لي الزمن.

رفع يديه إلى الهواء، ثم اتجه إلى حجرته، واتجهت هي إلى حجرتها. أغلقت الباب بالمفتاح حتى الصباح.

جلست على سريرها. نظرت إلى الخاتم في إصبعها، وللمال الذي تركه لها مؤمن قبل أن يغادر صباحًا. لم تره. غادر وهي نائمة ولم تودعه حتى. ولا تدري متى تراه من جديد. قال في رسالته القصيرة: هذا مرتبك. خلي بالك من نفسك.

ترك لها الكثير من المال أكثر مما تتوقع، لماذا؟ ربما توقع مؤمن قسوة الأب، هل توقع هذا؟ أغمضت عينيها في ألم وشوق. شعرت به من حين إلى آخر وسط نومها أمس. كانت تنام على صدره طوال الليل. لم تخف ولم تقلق.

طلب منها أن تتذكر، وهل تستطيع النسيان؟ كيف سمحت له بأن يستبيح جسدها هكذا؟ من يكون؟ ومن تكون؟ لا بد أن مرضها ورؤية الموت وقبح الشر أمور جعلتها ضعيفة هذه الأيام، ولكنها لا تستطيع الندم. ليتها تندم، بل تشتاق إليه الآن في اللحظة والتو وتخاف عليه .

أمسكت بتليفونها وطلبت رقمه. لم يجب. هل سينساها؟ هل يريد أن يفتت ما تبقى من النفس؟

مؤمن حكاية وعمر. وعقلها مبهم الآن. ولمساته لم تزل تطغى على كل التفكير وتشعل الشوق بلا هوادة، والنوم بين ذراعيه كان كل الأمان والسكينة. وقت الضعف والخوف، يطفو الصدق على السطح، ويسيطر وتتلاشى رتوش الزيف .

يان. قصة عذاب تشبهها هي قبل الالتئام. ترى وجهها الطيب وعينيها الباحثتين في كل الكون عن الراحة، وترى جثتها المشوهة. لمَ قَطْعُ الساق؟ لو كان المشي بطيئًا على كلِّ حال؟ والعجز موجود لا محالة والموت محقق. لمَ قطع الساق وحَرْقُ الجسد وتقطيع الروح؟ ما غرض القاتل؟ الشر تعرفه وربما لا تفهمه، ولكنها لا تتخيل القدرة على كل هذا العنف، ولا تتخيل شراسة الشر وغلظته. ارتجفت. عينا يان المنطفئتان أرعبتها. ولولا وجود مؤمن معها لماتت رعبًا وارتعادًا. انطفاء العين يخترق الأعماق.

هو ليس معها اليوم، ولمساته لن تلهيها عن بشاعة الكون. في هذا الطريق من رحلتها عليها الاعتماد على النفس والبحث عن الخلاص، ولا خلاص بدونه .

قال الأب إنها تفشل في كل شيء. لا بد أنه على حق. لم تكن قط على قدر توقعاته. ولكنها لن تستطيع أن تفشل هذه المرة، فهذه ستكون النهاية حتمًا.

* * *

أمسك الأب رأسه بين يديه، لم يذهب إلى الجامعة صباحًا. بقي في مكانه ساعات يشرب القهوة في صمت. بدأ القلق يساوره على ابنته التي لم تفتح باب حجرتها منذ أمس. قال الطبيب من قبل إنها تمر بحالة اكتئاب شديدة. تسرَّب بعض القلق إلى قلبه

دق باب غرفتها، وقال في صوته القوي: علياء.

- نعم.

- افتحي الباب.

فتحت الباب في هدوء، وخرجت من الحجرة. كانت لم تزل بنفس ملابسها. لا بد أنها مثله لم تنم. قال في هدوء: لا بأس لنحاول تدارك الأمر. سأدعو أيمن اليوم على العشاء. تتكلمان وتحلان مشكلاتكما. كنت تحبينه، لا بد أنك تكنين له بعض المشاعر.

هزَّت رأسها بالنفي:

تنفس الصعداء وقال في ثبات: لا تحبينه؟

قالت في قوة: لا أحبه.

قال في سخط: فلنحاول مرة واحدة تشغيل عقلينا في الاختيارات. يريدك ويحاول معك كل يوم. أعطه فرصة واحدة حتى تثبتي لي أن عندك عقلًا يفكر. إنني ربيتك ولو بعض الشيء. لا تكوني سبب تعاستي في هذا الكون. هل تدركين هذا؟ أنت الآن سبب تعاستي في هذا الكون. هل أنت سعيدة بهذا؟

قالت في ثبات: لا لست سعيدة. كنت أتمنى أن أكون عند حسن ظنك.

-حسنًا، سنصل إلى شيء حتمًا. اليوم سأدعوه على العشاء، وغدًا نذهب إلى الطبيب. هل تأخذين الدواء بانتظام؟

قالت في تأكيد: لن أتزوجه.

أطال نظره إليها، ثم قال بصوت بارد ينم عن نار بداخله: ماذا حدث بينك وبين المرشد السياحي؟ ماذا فعل؟ قولي الحقيقة.

قالت في قوة: لم يفعل شيئًا.

فقال في مقت: سيغور في ستين داهية. لا بد أنه سيعدم أو يسجن للأبد. يستحق هذا.

همست فجأة لا تدري لماذا: سأتزوجه.

قال الأب في صوت خافت: ماذا قلت؟

قالت: إذا سمحت لي أن أختار من أريد. أريده هو، وأريد أن أتزوجه.

كان يود لو يحطم رأسها بين يديه، لو تموت في التو واللحظة. لم يكن معتادًا أن يضربها، ولكنه فكر جديًّا في شق رأسها في هذه اللحظة .

قال بصوت بارد: تفعلين هذا لأنك تكرهينني. أعرف.

تذكرت لحظات تدخل الأم لإنقاذها عندما يبدأ الأب نقده اللاذع أو لومها على أنها لم تستطع الوصول إلى الأحلام التي رسمها لها ولم تقترب من النجاح الذي كان يطمح فيه لها. لم تتعلم منه، ولم تصبح مثله. كانت كلماته تربكها وهي صغيرة، وتهز النفس الغضة، وحنان الأم يطغى على كل شيء. والآن... مرارة الهزيمة جعلت الثبات ضروريًّا ولازمًا. لا تعرف لماذا قالت هذا. مؤمن لم يطلب الزواج منها، وربما لا يريده. لا تدري أكان انتقامًا لا إراديًّا من تبويخ الأب، أم يقينًا بأن هذا ما يريده مؤمن.

فقالت في ثبات غير معهود: أنت أبي، لا أكرهك. اعذرني لا أستطيع أن أكون عند حسن ظنك.

قال في برود: أقتلك قبل أن تفعلي هذا، ولكن لا لزوم لذلك؛ فلن يعيش كثيرًا هذا المرشد. فمن ماتت انقلب من أجلها العالم كما تعلمين، وهذا الرجل لا شيء أمام الدول والرجال. سينتهي قبل أن تغمض لنا عين.

ارتجفت وقالت: لن أتزوج غيره أبدًا.

قال في حدة: لو تزوجته لا أعرفك ما حييت.

قالت في نفس الصوت الثابت: أنا آسفة، إنني أخذلك دومًا. لا أستطيع الزواج من غيره.

-لا تستطيعين أخذ القرار السليم أبدًا.

-لو مات لن أتزوج، ولو عاش سأتزوجه، ولن أتركه أبدًا. اعذرني.

-غدًا نذهب للطبيب. لا بد أنك فقدت عقلك. لا أريد أن أراك الآن. وربما لنهاية العمر.

* * *

بقي الأب ساكنًا ينتظر كلمات الطبيب وابنته جالسة بجانبه صامتة منذ يومين. قال الطبيب في بطء: علياء أفضل بكثير. تبدو قلقة ولكنها أفضل. تلاحظ وزنها أفضل مما كان، تأكل وتهتم بمن حولها. تمر بأزمة، ولكن الاكتئاب يختفي تدريجيًّا. أنا سعيد بهذا التقدم .

بدا على الأب الحيرة، ثم قال: ماذا تفعل الآن؟

قال الطبيب: أمازلت تأخذين الدواء؟

قالت: توقفت عنه منذ فترة. لا أحتاجه.

نظر الطبيب إلى ساعته في انتظار المريض القادم وقال: ما كانت تفعله في الشهر الماضي، لا بد أنه أثَّر عليها إيجابًا. تستمر فيه.

قال الأب في حسم: لا يمكن.

عندما عادا اتجهت إلى حجرتها في صمت. فقال هو في قوة: دعوت خطيبك اليوم.

-ليس لي خطيب.

-دعوته اليوم ولا بد أن تستقبليه. تفهمين؟

لم تجب. دخلت حجرتها.

حاولت الاتصال بمؤمن. تليفونه مغلق. ساورها الخوف. بقيت ساكنة لا تدري ماذا بيدها أن تفعل. تتصل بمحمود .

قال الأب وهو يدق باب حجرتها: علياء، أيمن هنا، في انتظارك، يريد أن يتكلم معك.

فتحت الباب في هدوء. توقع والدها بعض المقاومة. ولكنها ارتدت ملابس متناسقة، وخرجت في هدوء وثقة من حجرتها. مدَّت يدها لأيمن، صافحته في قوة. بدا متأثرًا. كان أنيقًا ووسيمًا، رجلًا تحسدها عليه كل نساء القاهرة.

جلست أمامه، وقال والدها في شيء من الفرح: سأطلب من الخادمة تحضير الغداء.

ثم تركها معه. جلس أيمن أمامها بلا كلمة. حزينًا ربما. قلقًا ربما. لا تعرف بالضبط. قالت هي في ثقة: أيمن. أهلًا بك.

-حاولت أن أطلبك مرارًا. كنت أريد أن أشرح لك ما حدث. لِمَ كل هذه القسوة؟ ماذا بإمكاني أن أفعل؟ تتوقعين مني أن أقاوم وأحارب الوحش المجهول وأتغلب عليه وأنا لا أملك تلك القوة. ليس كل البشر بهذه القوة.

قالت في تفهم: أعرف.

- في الحقيقة هذا حمق وليس قوة. أنا وأنت ضعيفان الآن. ربما في المستقبل نغير قوانين اللعبة، والآن ليس لنا سوى أن نحترم القوانين القديمة حتى يصبح لنا القرار، ثم نغير القوانين. أعدك الآن أنني يومًا ما سأغير كل هذا. لا بد أن تفهمي. لو فهمت تنقذين نفسك أولًا، ثم كل من حولك. أحبك وأنت تعرفين.

قالت في قوة: أنا آسفة لأنني لا أستطيع أن أفهم، ولا أن أحبك.

قال في غضب: علياء، تتذكرين أحلامنا في الماضي ببيت وأولاد ومصر أفضل لنا. تتذكرين كيف كنا نتناقش في الأدب والسياسة، ونتبادل الأفكار ونحلم بالتغيير.

صمتت. ألهتها أحلامها عن رؤية الحقيقة. كانت تحلم وحدها، وترى في خطيبها ما تريد. فلا هو الحالم المثالي، ولا هو القوي الذي لا تكسره قوة الظلم.

كان خطيبها يعاملها بكل تقدير واحترام. وكان يردد دائمًا أن مصر تحتاج إلى تغيير كبير، وأن الفساد لا بد أن يختفي، وأن الجيل الجديد لا بد أن يمسك بزمام الأمور، وإنه ينتظر يومًا تسود فيه الحرية والمساواة بين الجميع، ويختفي الظلم. كان يقول إنه يتبع ضميره في كل أعماله، وإن الضمير هو ما ينقص كل من حوله. كلماته التي ينطقها كانت تعكس
أفكارها هي. وتريح نفسها هي. ولم تكن سوى كلمات تخرج من فمه، يرددها بلا فهم أو استيعاب، وكأن بيع النفس لا رجعة فيه، كما قال مؤمن. لا رجعة فيه بالتأكيد. لا أحبت خطيبها ولا فهمت حقيقتها سوى بعد الانكسار. وقت الخطبة حاول أن يقترب منها مرارًا، أن يقبل جبهتها وخدها، كانت تصده في حسم. وظنت أنها تفعل هذا لأنها لا تريد الاقتراب

منه قبل الزواج. أقنعت نفسها أن كل شيء سيختلف بعد الزواج. لم تكن تعرف بعد معنى الرغبة في لمسات رجل بعينه واللهفة لقبلات رجل بعينه. لم تعرف شيئًا حتى قابلت مؤمن. كيف للحقيقة أن تختبئ كل هذا الوقت؟ وربما كانت ستظل الحقيقة مختبئة إلى الأبد، لولا الانكسار والهزيمة وطعم الظلم الذي يفيق كل الغفوات. للعذاب هدف وللهزيمة مراد. ولو تزوجته؟ ولو عاشت بين زوايا الضلال والكذب بقية عمرها كالكثيرين؟ فهمت عذابها واستساغته. فهو ثمن لانكشاف الكذب. وبدأت تقدر الهزيمة كما لم تقدرها من قبل .

لاحت بذاكرتها جثة يان المبتورة المشوّهة. لو كانت هي تزوجت أيمن لكانت ستُبتر من الداخل وتموت مشوّهة الروح. مسكينة يان لا بد أنها لم تكتشف الحقيقة إلا بعد فوات الأوان. البتر لا يحدث فجأة بل يحتاج سنين من الضلال .

قال: لماذا تدافعين عني أصلًا؟ أنا لست معترضًا على سرقتي، ما مشكلتك أنت؟ أنت لست قديسة لتبحثي عن حقوق الآخرين.

لم تجب. فقال في رجاء.

- كنت تحبينني؟ ماذا حدث؟

-ربما لم أحبك حقًّا .

- سمعت الإشاعات. غريب أمرك يا علياء. تلومينني لأنني سكت ولم أقل الحقيقة التي لو قلتها يضيع مستقبلي كما ضاع مستقبلك، ومع ذلك تعجبين بمن يبيع نفسه كل يوم. غريب أمرك لأنك منافقة إلى أبعد حد. غواك بحكاياته وكلماته المعسولة؟ والدك أخبرني بكل شيء. وأخبرني بمرضك. استغل ضعفك لأنه يطمع في أموالك، ألا تفهمين؟ يُعطي نفسه لمن يدفع أكثر.

بقيت ساكنة. خانها والدها كما يفعل أحيانًا. لا بأس.

قال في إصرار: تركتِني لأنك ظننت أنني أسكت على الظلم ولم أتكلم، لم آخذ حقي وحقك. صح؟

هزَّت رأسها بالإيجاب. فأكمل: ومن باع نفسه لامرأة من أجل الدولارات، ومن يبيع نفسه وينصب على الآخرين كل يوم لا تحكمين عليه. علياء، أعمى الغبار عينيك، لم تعودي تفهمين أو تعرفين. وعدتك أنني يومًا سأقول الحقيقة عندما أستطيع، أنا كذبت في شيء تافه يخصني أنا. وهو يكذب في كل شيء. يقتل ويسرق ويبيع نفسه ويشهد زورًا. تفهمين؟

همست في بطء: أفهمك.

قال في فرح: كنت أعرف أنك ستفهمين .

قالت وهي تنظر إليه: أنت تبدو مثالًا للأخلاق، وهو يبدو مثالًا للانحراف. أنت تبدو صادقًا ومُكرهًا على تقبل الظلم، وهو يبدو متلاعبًا بالكلمات والبشر، يريد مصلحته هو فقط. لا تحكمه أخلاق ولا قيم. كل شيء واضح. للجميع، ما عدا إيَّاي.

- ماذا تقصدين؟

-لو صدّق الجميع هذا، كل البشر. فأنا تعلمت ألا أصدق عيني. قاسيت وتعلمت. أيمن. لست غاضبة منك. فلولاك لما تجلت لي الحقائق، كلنا ضعفاء. وهناك ضعف أتفهمه وضعف لا أحترمه. اعذرني. أراه صادقًا قويًّا وسط كل الكذب. لم يبع نفسه .

- هذا هراء. الحقيقة واضحة للجميع. الطب الشرعي أثبت أنه عاشرها. وأنها ليست مريضة. تخدعين من؟

قالت في إصرار: انتهى كل شيء بيننا. أتمنى لك التوفيق.

قام في ضيق ثم قال: تريدين الانتقام مني فقط.

لم تجب.

بقى الأب واقفًا أمام الباب في فزع وأيمن يترك المنزل. قال في صوت حاد: فقدت عقلك. ماذا قلت؟ لماذا تسيرين عكس كل الاتجاهات دائمًا؟ ماذا حلَّ بك؟ ماتت أمك. يموت كل البشر. لمَ كل الحزن غير المنطقي هذا؟ ثم حدثت لك مضايقات في عملك بسبب إهمالك فيه، هل هذا يجعلك تتركين خطيبك؟

لم تجب. فقال الأب في جفاء: صدمك أيمن؟ وعندما يصدمك المرشد السياحي ماذا ستفعلين؟ تفقدين عقلك وتفضحينني أكثر من ذلك؟

اتجهت إلى غرفتها، وأغلقت الباب وكان وراءها الكثير .

تمَّددت على السرير، وذاكرتها ترحل بها لأول مرة إلى كل الأزمات والاختبارات، وكل الواقع والأوهام. إلى صوت أمها وضحكتها التي تغطي كل الذكريات، وتوقف كل الآلام. تسربت الدموع إلى عينيها وارتجفت، علياء. المتفوقة المثالية التي يحسدها الجميع على خلقها وجمالها وذكائها. علياء التي تهاوى عالمها في يومين. يوم واجهت الحقائق، ويوم واجهتها الحقيقة الوحيدة الموجودة دائمًا. يومين أتيا بلا توقع، الواحد تلو الآخر.

حَكَّتْ عينيها في قوة وكأنها تحاول أن تحسن رؤيتها. هذا البصر يلعب بنا، فنرى الرجل أسدًا وهو فأر، ونرى السيدة الباكية تمثالًا وهي صورة من الألوان الباهتة. يخدعنا طوال الوقت. هذا غريق، وهذا مصارع، وهذا شرير، والآخر طيب. هذه أمواج تجتاحنا وكأنها الطوفان، وتلك طرق ممهدة تنتظر السائرين، وهذا علم واضح ومكتوب، وتلك أسرار تبدو خارج
كل نطاق المنطق.

هُدوءها وأصلها. نقاؤها وهالة البراءة والصدق التي تحيطها تجعل الجميع ينحني في خشوع. بنت أصل. بنت يتمناها كل من يراها .

ونقطة ضعف علياء كانت مشكلة للعالم أجمع، فكانت تكره الظلم. كل الكره. وعندما كانت طفلة ترى الأطفال يسخرون من طفلة بعينها أو يأنبونها كانت تستوقفهم في قوة، وتضحي بالعزيز لتحارب الظلم. وكان الظلم دائمًا أقوى ودائمًا مستعدًا. حدث في يوم منذ سنين، كانت هناك طفلة في مدرستها لسبب ما كرهها الجميع، وكرهتها مدرستها واتهمتها

بالسرقة، وسخرت منها، بل وشجعت الآخرين على دفعها وضربها. فعلوا بلا هوادة بقسوة البراءة وحقد الطفولة الذي يولد مع البشر. أمسكت بها علياء، ساعدتها على القيام، كانت سنتها قد تحطمت والدم يتساقط من فمها، ولكنها لا تبكي.
صاحت في الأخريات: حرام كده. توقفن.

نظرن لعلياء على أنها من كوكب آخر لا تصلح كصديقة، ولا حتى زميلة بينهن منذ ذلك اليوم. ابتعدن عنها ولكنها لم تبال. قالت كلمة الحق ولم تبال. أخبرت أمها فحضنتها كما تفعل دائمًا وأبقتها داخل حضنها طوال الليل وهي تهمس: فعلت الصح. أنا فخورة بك.

أما والدها فكان لا يجيد التعبير عن مشاعره قط، ولا يعطيها كلمة إطراء واحدة. بعد أن ولدتها أمها قال الطبيب إنها لن تنجب مرة أخرى. اضطر إلى وقف النزيف بعد الولادة مما أدى إلى عقم الأم. بدأت إحباطات الأب، وتوقف طموحه في ولد يرث عيادته ومهنته، ولكنها كانت ابنة وحيدة يرونها زينتهما وكل عمرهما. حاول أن يقنعها أن تصبح طبيبة مثله، ولكنها رفضت، لا تحب الدماء. توالت الإحباطات على الأب، ولكنه كان يحب زوجته. فزوجته تفهمه، وتعرف كيف تتعامل مع شخصيته، وتتقن احتواء كل الأزمات، وعندما تعينت علياء في الجامعة باركت لها الأم والدموع في عينيها، كانت فخر الجميع. تعمل بكل ضمير وبكل إخلاص. كان أيمن مدرسًا مساعدًا في نفس القسم. أحبها منذ اللحظة الأولى وبادلته المشاعر. طلب خطبتها، ووافق الأهل فقد كان من وسطها ومن المعارف. لا غبار عليه. بدا العالم مستقيمًا، وأن كل الواقع يسير كما يجب. ولم تزل علياء مصدر حسد الجميع وغيرتهم؛ فحياتها تبدو كأساطير الأطفال. علياء جميلة غنية تقابل الأمير الوسيم وتتزوجه. والمال لا يسبب لها أي مشكلة، ومشاكل الوطن وكل الأوطان لا تعرفها ولم تذقها.

وكان لا بد من اكتمال الأسطورة، غير أن آفة علياء كانت حب الحق وكره الظلم. تلك آفة لا بد من التخلص منها حتى يتسنى العيش في سلام وسط جموع البشر المحبة للمساواة.

ولكن علياء بسذاجتها لم تفهم هذا ولم تستوعبه. حظها الجميل أنها كانت هي وخطيبها يعملان معًا مع نفس الأستاذ في القسم. خطيبها يكتب رسالة الدكتوراه، وهي تكتب رسالة الماجستير. كان المشرف عالمًا قديرًا يحبهما ويقدرهما. ولكن بدأ خطيبها يتصرف تصرفات لا تحبها، ولكنها تجاهلت هذا، وحاولت التعايش مع شخصيته. هكذا قالت أمها. مثلًا كان يحمل حقيبة المشرف كل يوم ويضعها في سيارته. بل وأحيانًا يشتري له بعض الخضراوات ولوازم البيت. يأتي له في المساء بأشياء أكثر من الخضراوات. مرَّة بكمبيوتر، ومرة بتليفون حديث لابنه. عندما تسأله يقول إنه اشتراها له فقط، وإنها ليست هدايا، وإن المشرف لا يقبل هدايا. تغاضت عن هذا، فخطيبها لا يكذب.

ولكن عندما طلب المشرف بغروره وسذاجته منها أن تقرأ رسالته أولًا قبل أن تبدأ في الكتابة كانت نهاية عالمها الذي تعرفه. فما إن بدأت في قراءة الرسالة القديمة حتى شعرت أنها قرأت هذا الكلام من قبل. بحثت يومين. كانت رسالة دكتوراه المشرف منقولة حرفيًا من رسالة أخرى في بلد آخر منذ أعوام. رسالة تاريخها قبل رسالة المشرف. تزوير واضح وصريح. ولا
بد من إجراء واضح أيضًا. طلبت خطيبها، وأخبرته بالأمر. بقي صامتًا لحظات، ثم قال: وماذا في ذلك؟ ماذا يهمنا أصلًا؟ هذه رسالة مرَّ عليها عشرون عامًا. وهو مشرفنا. انسي الأمر.

بدأ العالم يتهاوى أمامها رددت: أنسى الأمر؟

فقال مسرعًا: أقصد ربما تاب من يدري؟ فعل هذا منذ زمن، لا تفضحيه. هو مشرفك لو فضحته فلن تحصلي على الدكتوراه حتى تموتي تفهمين؟

قالت في إصرار: لا، لا أفهم.

ثم عادت إلى البحث من جديد وبشراهة جديدة عليها، تبحث في كل مكان عن الحقيقة. تاب إذن؟ وجاءت المفاجأة التي توقعتها، فالمشرف الأستاذ المشهور لم ينقل بحثًا واحدًا بل أبحاثًا. آخرها بحث خطيبها الذي كتبه للدكتوراه نقل منه صفحات ونشرها بالفعل باسمه هو.

جاء اليقين وأراحها. أخبرت أمها، وطلبت خطيبها، وتقابلت معه، وقالت له ما حدث فأجاب في ضعف: لا يهم. أنا لا أهتم بهذا. أريد الحصول على الدكتوراه فقط، شهور وأحصل عليها. لا تشغلي بالك يا علياء هذا ليس من شأنك.

لم تصدق في البداية. سقط إلى خارج نطاق عمرها كله. ذهبت صباحًا وقد عزمت أمرها، وطلبت مقابلة العميد ورئيس الجامعة وكل من تعرف، وقررت بلا تردد فضح كل الأمور. استمع لها الجميع في صبر. تعالت الهمسات حولها. رآها المشرف وهي تسير رافعة الرأس لأنها قالت الحقيقة فهمس في صوت بارد: مستقبلك ضاع. أعدك بهذا.

لم تخفها كلماته. ولم تأبه بما يدبر لها، فعلت ما كان ضروريًّا فعله بشجاعتها وقوة الحق. بعد امتحانات الصف الأول طلبتها الجامعة للتحقيق: إهمال في الدرجات؟ أو تلاعب في الدرجات. أدهشتها التهمة ولم تفهمها، هل وقّعت على درجة خاطئة؟ هل دسَّ أحد لها أوراقًا مختلفة؟ تهمة واضحة وصريحة والحكم فيها أيضًا واضح. تلاعبت في الدرجات لأنها

صديقة بعض الطلاب، أو على علاقة بهم، أو لكي يعطوها ثمنًا لذلك. بدا الكون مقلوبًا بعض الشيء. انتظرت شهادة أيمن، ولكنه طأطأ رأسه وقال: تعالي معي نتأسف للمشرف، ونطلب منه أن يغفر لك. أنا أتوسط لك.

قالت في إصرار: لا.

الغريب أن المشرف لم يزل يعمل في نفس إتقانه، وبنفس أسلوبه. وأن علياء المسكينة جاءها قرار بالوقف عن العمل قبل أن يأتيها بعد وقت قرار بالفصل. والغريب أن خطيبها لم ينطق بما يعرف، وأن العدل الذي كانت تبغيه طيلة عمرها عواقبه وخيمة هذه الأيام. وأن التباس الحقائق هو كل ما نُوقن في ليالينا المظلمة.

اتضحت الحقيقة، فللشر طرق مليئة بالضجيج والصخب، والأضواء فيها تجذب الأبصار، وللخير طرق قليلة كلها سكون ووحدة. مشت في طريقها وحيدة ومنبوذة من الصديق قبل العدو. فالحق مخيف ومحيّر وللظلم سحر وطرق ممهدة منذ الأزل.

كانت تحكي لأمها في استغراب وتهمس: لا أفهم. لماذا؟ لماذا؟ كلهم يعرفون. لم يتكلم أحد. لم يتكلم أحد. الكل يبتعد عني. الكل يهمس بأنني أنا السارقة، أنا خائنة الأمانة، أنا المنحرفة. أمي !

غريب أمر الأم. كانت دائمًا موجودة معها، ولكن اليوم بدت متعبة. دخلت سريرها وهي تعاني من صداع شديد ولم تستيقظ صباحًا.

عندما توقفت الأم عن الحركة هزَّتها علياء بقوة والعقل لا يفهم ولا يفطن. ذهبوا بها إلى المستشفى، وقال الأطباء إنها جلطة في المخ. بقيت بجانبها ثلاثة أيام لا تنام ولا تأكل، بل تنظر إلى أطراف الأم، وتنتظر الأمل، أيَّ أمل ولو طفيف.

تحركت أصابع قدمها، وجرت علياء إلى الطبيب في فرح ممتزج بيأس لم تشعر به من قبل. قال الطبيب إن هذه ربما بارقة أمل وربما أوهام، وأن الأم حتى لو عاشت ستبقى مشلولة إلى أن تموت، وفي تلك الأيام كان أمل علياء أن تعيش الأم، أن تبقى حولها بأنفاسها فقط تضيء الطريق، وترشد النفس، وتساعدها على التعايش مع الظلم والاستسلام لكل الحقد حولها. فلتبق بأنفاسها فقط لتنام علياء على صدرها، وتحكي لها عن معاناتها وآلامها، لتنام على صدرها في أمان اختفى وتلاشى إلى الأبد. لتبقى الأنفاس فقط لتشعرها أن الحياة يمكن تحملها في صبر وعزم .

وضعت رأسها على صدر الأم، وسالت الدموع وهي تقول في هستيرية: لا تتركيني.

تذكرت كلمات الأم ولمساتها الحانية التي تفيض منها الدنيا وكل الأنهار. لم تعرف حنانًا سوى حنانها. تذكرت عندما كانت الأم تأخذها بين ذراعيها وهي في سن المراهقة وتهمس: أنت هدية السماء لي. أريد أن أحيا لأستمتع بك.

بعد موت الأم نظر الأب في وجوم لابنته وقال: ماتت يا علياء. ماتت منذ أيام. لا بد أن تقتنعي بهذا.

لم تبك علياء من جديد سوى في الأقصر والبعد داخل القلب يترعرع، لم تتكلم مع والدها عن الظلم والفقد فلن يفهم. استمرت حياتها، وكأن كل شيء كما هو، فلا الأب سيشعر بها، ولا الحزن في القلب قادر على التحرك. القلب المكلوم لا يستطيع أن يعبر إلى الشاطئ ويصل حتى إلى الأمواج العاتية ليصارعها. الموت هو الأمل في النجاة، فالشاطئ لا وصول له،
والعمق أقرب وآمِن. وأنفاس أمها كانت تبعث الحياة بداخل الصدر. بغيرها أصبحت قعيدة الفراش تنتظر الغرق في الأعماق.

لم تبكها علياء. بقت ساكنة لا تنطق ولا ترد على أحد. توقفت عن الأَكل والكلام حتى ظن الأب أنه يفقدها. وفقدت عشرة كيلو من وزنها في أيام. وإذا سألها الأب ما إذا كانت بخير تجيب في هدوء غريب: أنا بخير.

لم تصرخ في وجه خطيبها، تركته في هدوء، لم تحطم رأس المشرف. ولم تتغير. تحطم عالمها ومعه كل شيء .

ترقرقت الدموع في عينيها وهي تدفن رأسها في الوسادة وتتذكر تاريخها.

عندما شعر الأب أنه يفقد ابنته أخذها إلى طبيب نفسي، أخبره أنها مصابة باكتئاب، وأن هذا ليس حزنًا عاديًّا، وأنها لا بد أن تأخذ الدواء بانتظام وتتابع معه. وقال الطبيب إنه يخاف أن يؤدي هذا الاكتئاب إلى انتحار أو موت جوعًا. لا بد من الحذر.

لم يمر الكثير حتى جاءتها مكالمة محمود تطلب منها العمل مرشدة في الأقصر. وهذه حقيقة أخرى.... تحتاج إلى وقت لتفهمها.

عند التباس الحقائق لا بد من استشارة النفس، والاعتماد على نبضات الحنو النابعة من الداخل. مؤمن اشتاقت إليه وأيقظ أحاسيس مختلفة بداخلها، رغبة لم تفهمها في الجسد، وشوق لشيء غير ملموس. اشتاقت أن تمر بيديها على جسده، وأن تقبله قبلات كثيرة. ولكن ما أفقدها توازنها حقًّا هو هذا الشعور بأن الخروج من الأعماق ممكن، وأن الوصول إلى
الأمواج جائز، وأن الحنان الكامن في الأعماق موجود. ما أفقدها كل الإدراك هي تلك الساعات التي نامتها بين ذراعيه وعلى صدره بعد أن استنشقت رائحة الموت قتلًا والخوف من المجهول. وكأن الأم بعثت، وكأن الصدر به كل المستحيل. السكينة التي طغت عليها معه هي ما أربكتها. السكينة هي التي جعلت كل الشك يتلاشى. يده على أذنيها تحميها من صخب
الظلم وضجيج الهمجية. ذراعاه وقلبه هدايا من الزمن لا تستطيع أن تفقدها. ماذا يتبقى للنفس لو فقدته هو أيضًا؟

* * *

في اليوم التالي ارتدت أجمل ملابسها، وذهبت إلى الجامعة في شموخها المعتاد. سارت بين الأروقة الفسيحة ورأسها مرتفع في كبرياء. ازدادت الهمسات. لم تمتد لها يد بسلام. أدار الجميع وجوههم، بعض الناس يستهويه قصة خطيئتها وترضي غيرته، وبعضهم يخاف من بطش المشرف وأصدقائه. ذهل أيمن من جرأتها، لم ينطق. اتجهت إلى مكتب العميد.
طلبت مقابلته. بقيت في الانتظار ساعات. قابلته، قالت في وضوح وقوة إنها لم تفعل شيئًا، وإنها لن تصمت عن ظلم وسرقة. وإنها وكَّلت محاميًا للدفاع عنها، وستبقى تحارب حتى آخر يوم في حياتها. نظر إليها في استغراب، ثم قال: كل هذه القوة؟ أنت معيدة. فقط معيدة ؟ أهمية والدك لا تعنينا هنا .

لم تخف ولم تبال. خرجت في نفس القوة وذهبت لمحام، وقررت أن الحقيقة لا بد أن تظهر، والظلم له يوم ويتقهقر. وعلت الهمسات. لا بد أنها هددت العميد. هددته بنفوذ والدها. مصيبة علياء هذه كل ما تفعله فاسد، تغير درجات وتقبض ثمن فسادها العلمي. لا بد من أن تصبح مثالًا لكل الناس، ورمزًا لأي مسئول تسول له نفسه المساس بالعدل والضمير.
لا بد من ذبحها ليتعظ السارق والفاسد، المزور والظالم. تصلب على الملأ لو أمكن وتقطع يداها وساقاها. رددوا: ما أبشع كل هذا الفجور. دائمًا فاجرة علياء. كانت ومازالت.

عندما علت الهمسات قال الزميل لزميله: أنقذك الله من هذا الزواج. لا أثق بها. من تبيع ضميرها كعلياء لا بد أن تبيع شرفها .

قال أيمن في تأكيد والغيظ سيطر على كل المشاعر: أتفق معك. أنقذني الزمن منها. لا تعرف مدى تنازلها عن شرفها. أنا أعرف، ولكنها أعراض لا أريد الخوض فيها. تفهمني بالتأكيد.

ضرب صديقه كفًا على كف وردد: لا حول ولا قوة إلا بالله.

وعندما سألها والدها أين ذهبت أخبرته بأنها رفعت قضية على الجامعة وأنها لن تقبل الظلم.

قال في ريبة: ومن أين أتيت بالمال لتدفعي للمحامي؟

قالت في ثقة: من مرتبي.

-كم أعطاكِ المرشد؟

قالت في اقتضاب: ما يكفي.أطال نظره إليها، ثم قال: يمكنني أن أصلح ما تحطم وأحل لك هذه المشكلة.

قالت: كيف؟

- بطريقتي. لدي أصدقاء، ويمكن التصالح مع المشرف. بل لا بد من التصالح. ما تفعلينه هو انتحار لا فائدة منه.

قالت في إصرار: لن أحترم نفسي لو فعلت هذا. واعذرني يا أبي، ولكن إذا تهاون رجل في قوتك عن الظلم فماذا يفعل الضعفاء؟ ساعدني على إثبات الحق لا أريد سوى هذا .

صاح في غضب: تتهمينني بالتهاون عن الظلم؟

قالت مسرعة: أنا آسفة لا أقصد. أقصد فقط أني أتمنى أن تصدقني. لم أفعل شيئًا سوى قول الحق.

قال في تهكم: أنتم جيل مجنون ومنتحر بالتأكيد، لَمَ كل هذا الغرور؟ تعتقدين أنك أنت تستطيعين تغيير نظام موروث في العالم كله؟ اتركي القرارات للكبار، فأنت ساذجة ومتسرعة.

كانت تود أن تقول وماذا فعلت بنا قرارات الكبار، ولكنها لم تنطق.

صمت برهة، ثم قال: لماذا أعطاك كل هذا المال؟ هل أنت على اتصال به؟

قالت في ألم: لا أستطيع.

تنفس في ارتياح، ثم قال: تتركين لي مشكلتك أحلها بطريقتي أم تنتحرين من جديد؟

قالت في رفق: أريد أن آخذ حقي لا أن أتفاوض عليه. الحق ليس به تفاوض، والظلم لا بد أن يحارب من الجميع.

اقترب منها، وقال في صوت حاد: سذاجتك ستقضي عليك كما قضت على غيرك. كل شيء قابل للتفاوض، كل شيء.

* * *

عندما بدأت علياء في رحلة البحث عن الحقيقة كانت الحقيقة الكبرى في حياتها لم تزل ملتبسة.

بحثت في تليفوناتها القديمة عن صديقة تكبرها بدفعتين. وجدت رقمين حاولت الاتصال بهما. الأول كان رقمًا مغلقًا، وبدا أن صاحبه اختفى، والثاني ردَّ عليها. بعد مقدمات محرجة سألت ما إذا كان هناك صور قديمة لهذه الدفعة لأنها تجمع كل صور الجامعة في ألبوم. فبعثت لها الزميلة بصورة قديمة على تليفونها. شكرتها وكبرت الصورة على قدر استطاعتها.

كانت تبحث عنه. وجدته. كان في الصف الأخير. تغيَّر بعض الشيء. بدا في الصورة أكثر براءة وأكثر فقرًا. كانت صورة مبهمة. حاولت أن تتذكر. هل قابلته؟ هل تكلَّم معها؟ لم تتذكره. الغريب أنها لم تتذكره. لا بد أنه يعرفها منذ سنين.
اتصلت بمحمود كما تفعل كل يوم تسأل عنه. ومحمود يطمئنها ويخبرها أنه سيتصل بها عندما يستطيع. قالت هذه المرة: من أين عرفت رقمي؟

سكت محمود ثوان ثم قال: لا أتذكر. لماذا؟

قالت في ترج: حاول أن تتذكر. من اقترح اسمي؟ هل كان مؤمن يعرف شيئًا عني؟ يعرف مشكلتي مع الجامعة مثلًا؟

قال محمود: لا أظن ذلك. أعطاني بعض الأرقام. رقمك ربما. ربما أعطاني رقمك، ولكنه أعطاني الكثير من الأرقام.

همست: حاول أن تتأكد.

-أعطاني رقمك. لماذا تسألين؟ أصارحك لم يكن متحمسًا لك على الإطلاق. لا أدري ماذا يحدث بينكما.

-كيف عرف رقمي؟

-مؤمن يعرف كل شيء. لديه أصدقاء في الجامعة من الموظفين والطلاب والأساتذة، ينظم لهم رحلات كثيرة.

سألته مرة أخرى عن مؤمن. قال إنه سافر، عندما يعود يتصل بها، سيتصل بها.

هل تخونها أذناها؟ قال إنه يحبها منذ زمن. سمعته. كانت متعبة، ولكنها سمعته، ونظرت إلى الخاتم الذي لم يترك إصبعها منذ أعطاها إيَّاه، حاولت أن تتذكر اسم المحل. بحثت عن رقمه واتصلت به. طلبت أن تتكلم مع صاحب المحل. وصفت له الخاتم، وذكرته بمؤمن، وبيوم كانا معًا، قالت في حماس: صديقة لي تريد خاتمًا مثله؟ هل لديك واحد مثله وبكم؟

قال: آه طبعًا أتذكرك. كلنا نحب مؤمن، يؤلمنا ما حدث. ندعو الله أن ينجيه من مصيبته، فهو بين فكي القرش. الغرب وجبروته والحكومة وظلمها. ندعو له جميعًا.

قالت في خوف: أين هو؟

فقال الرجل: لا أعرف، ثم أكمل: لو بعثت لي بصورة للخاتم يمكنني صنع خاتم مثله. ولكن ليس لدي مثله الآن. فقد جاء به مؤمن، وطلب مني أن أحتفظ به حتى يأخذه مني كعينة أو شيء من هذا القبيل، ربما، لا أدري. أنا لم أصنعه. ولكني أستطيع صناعة خاتم مثله وأفضل، الذهب غال الآن، ولكن الخاتم جميل.

أمسكت بالخاتم في تلقائية. لم يشترِهِ منه؟ كان يدعي كل هذا. كان معه منذ زمن. أراد أن يعطيها إياه، وفكر في حيلة.

أغلقت التليفون. متى أحبها؟ هل أحبها وهو زميل لها ولم يصارحها قط؟ هل يمكن للمرشد السياحي أن يملك هذا التناقض داخل نفسه؟ يحب من لا يعرفها. يتتبعها بعينيه وقلبه ولا يصارحها؟ ولو صارحها. قالت لنفسها في مرارة: كانت سترفضه على الفور. فلم يكن الزمن هو الزمن، ولا الحقائق هي الحقائق. الظلم يعلم على القلوب ويمحو غرورها، يكشف حقائق النفس، ويفرز الأرواح. لا بد أن تفكر بعقل. تفهم دون اندفاع. يعرف محنتها. هذا أكيد. وقال إنه يحبها منذ بداية عمره. وأعطى محمودًا الرقم. ربما. هل أحبها في صمت حبًّا مستحيلًا لمن لا يملك ولا يستحق، ينظر إليها وهي بين الأمراء والملوك، وهو المجهول الجنوبي؟ ثم ماذا؟ عاش حياته. صادق النساء، ونجح في عمله، وربما تزوج من غيرها. أيُّ رجل هذا؟ وأيُّ نفس هذه التي تخدع كل الأبصار؟ ولماذا ساعدها؟ لماذا صدقها؟ ولِمَ لَمْ يحقد عليها لأنها لم تشعر به ولم تعرفه. منافق. وكاذب. هذا أكيد. ولكنه سحرها بكلماته وحنانه. رقائق النفس الهشة ذابت أمام كل هذا العمق في العشق بلا أمل. وربما تخدعها أذناها، وربما خدعتها لمساته وكلماته، فلا تجارب مع الرجال ولا معرفة بشرور النفس وفخ الروح. يعلم بمأساتها وحزنها الدفين؟ كيف؟ يسأل عنها من حين إلى حين، وعندما علم بخطبتها لماذا لم يفعل شيئًا؟ وماذا يفعل؟ اثنان مخطوبان بعد قصة حب. ماذا بيده أن يفعل؟

صدقها. أراد مساعدتها. أراد أن يخرجها من بين أطراف الموت. قُبلتُه المفاجئة؟ حكاياته. تتكشف الحقيقة أمامها تدريجيًّا .

دق على بابها، فعل. كان يريد الاطمئنان عليها، والتأكد أنها تأكل وأنها بخير. كيف لم تلاحظ؟ كيف أخفى القلق واللهفة؟ كان يعرف أنها مكتئبة؟ لاح بذاكرتها يوم بقي أمامها حتى تأكل كل طعامها. حنقت عليه، وظنت أنه يريد إذلالها. كان يتأكد من أنها لا تبكي ليلًا. يستمع لبكائها. يعرف كل شيء عنها. يراعيها وكأنها قطعة منه وهي لا تدري بشيء. هل يوجد في الكون رجل بهذا الجنون؟ وهل تستحق كل هذا العناء؟ كان لا بد أن ينساها، فالعالم كله أمامه. جنونه لا دواء له، يفوق اكتئابها وكل ما تعلمت في عمرها.

أيُّ نفاق وأيُّ كذب أن يمارس الجنس مع امرأة ويتزوج أخرى، ويبقى أبد الآبدين يعشق دون أمل؟ لم يتزوج. ربما راوده الأمل، ربما أراد استغلال محنتها ليؤثر عليها. هي ضعيفة لا شك. مهزوزة لا محالة. ملتبسة عليها كل الأمور. هذا أكيد. ولكن اليقين داخلها بأن قصتها هي كل الحقيقة، وبأنه يملك حنان الأم وعطاء العاشق الزاهد مهما كانت حقيقته ومهما فعل، فالأطراف لا تكذب، والقلوب لا ترتجف بلا سبب. هذا مؤكد.

أغمضت عينيها. جنون الواقع يفوق كل الخيال.

الزاوية الثانية

صراخ الأخ كاد يصل إلى الأقصر، وعصبيته أخافت كل أهل البيت حتى الزوجة. قالت الزوجة في رفق: اهدأ يا سامح. هو صغير لا بد سيعقل.

لم تنطق الأخت، وبقيت الأم تتحرك وتهتز في حركات روتينية وهي تتمتم شيئًا لنفسها، حتى نظر إليها الابن، وقال في حسم وصوت هادئ: أم سامح. ابنك مؤمن مات اليوم. لا يدخل هذا البيت طالما حييت. فضحنا وجرسنا. يبيع نفسه لنساء الغرب مقابل المال. ثم يقتل ولِمَ لا؟ من يبيع نفسه يقتل أيضًا. انسي هذا الاسم. لو اتصلت به، لو رأيته، لو سمعت
اسمه يتردد في هذا البيت فأنا لا أعرفك ليوم القيامة. أقسم على ذلك الآن.

صمت لحظات ثم أكمل: وكأنه يتعمد الانتقام مني. كأنه يود فضحي ويبغي خذلي، يغار لأنني أنجح منه، طوال عمره يغار مني، حتى وهو طفل. أمي. هو مات. لست أول أم تفقد ابنها.

غطت وجهها بيدها وهمست: ساعده؟

قال في قوة: ماذا قلت؟

همست من جديد وسط صمت الجميع: دمك، هو دمك، ساعده. تستطيع، أنت ناجح وتعرف الكثير، ساعده.

ارتجفت الأخت، تتوقع أن يصيح في وجه أمه وتخشى هذا، ولكنه لم يفعل. جلس بجانب الأم، وقال: ابنك متهم في قضية شرف. أساعده كيف؟ أتدخل كيف؟ أقول أخي لم ينم مع الأجنبية ولم يقتلها؟ كان يقرأ لها كتابًا؟ جرسنا جميعًا.

قالت في ترجٍ بصوت مبحوح: لك كل الحق. وأعدك لن أراه حتى الموت. أقسم لك الآن. ولكنه دمك. ساعده. ربما يعدم. هو أخوك. لم يقتل. تعرف أخاك، تربيتما معًا.

-لا أعرفه، ولم أعرفه منذ صادق الغرباء وعاش في الفجور.

قالت بصوت خافت: ساعده، ولا تسمح له بدخول البيت. فقط ساعده. وأقسم لك إني لن أراه ما حييت. تعرف الكثير. فقط أخبرهم ألا يسيئوا معاملته في السجن. أخبرهم أن يرفقوا به فقط.

ساد الصمت لحظات ثم قال: ربما.

همست الأم والدموع تتساقط في صمت: أنت سيد كل الناس.

قال مسرعًا: ولكنه لم يطلب مني المساعدة. هل طلب مساعدتي؟ هل طلبني عندما قام بمصيبته؟

همست وهي تمسك بذراعه: نفسه عزيزة. تعرفه. هو يخجل منك ويعرف غلطه.

-عندما يعرف غلطه ويأتي نادمًا أساعده، ولكنه مات بالنسبة لنا، تفهمون جميعًا؟

ساد الصمت. لم تخرج الأم من حجرتها. أبقت رأسها بين يديها، وهذا البلاء يفوق كل البلاءات، لم تأكل حتى عندما رجتها ابنتها، وحتى عندما رجاها ابنها على امتعاض .

في اليوم التالي همست لابنتها أنها تريد أن تتصل بمؤمن. كان الأخ خارج البيت، قالت ليلى في رفق: لا يمكن. تعرفين كيف سيغضب. حتى مؤمن لا يريد أن يتسبب لك في المشكلات .

صمت، وحلفت أن تنزل في الشوارع تبحث عنه وتسافر وحدها. أعطتها التليفون، حاولت أن تتصل به بأيد مرتعشة كان رقمه مغلقًا. لا بد أنه حبيس. ربما كان مريضًا. ربما...

بقيت على سريرها دون حراك، تأكل القليل، ولا تترك المصحف من يدها، ولا تتكلم مع أحد. تضع التليفون بجانبها، تنتظر منه مكالمة.

* * *

يوجد فئات من البشر تتجلى لهم كل الحقائق وتنكشف بلا هواجس ولا تردد ولا شك معذب. وكان هذا الضابط من هؤلاء المحظوظين.

بدأ كلامه بمقدمات طويلة عن الوطن وما يعانيه بعد هروب السائحين، وانتفاضهم من حول بلادنا وبعد اتهام الغرب القاسي لبلادنا وقسوة الزمان على أم الحضارات، ويتكلم عن دور كل مواطن في مواجهة الأخطار، ومؤامرات البلاد المرفهة التي ولد مواطنوها أحسن حظًّا وأكملوا عمرهم على القمم. وقال إن هذه قضية شائكة تضع البلاد في وضع حرج مع الأصدقاء والأعداء، وأن الضغط على بلادنا من كل اتجاه، مع أن حادثة كهذه تحدث في الغرب كل يوم آلاف المرات، ولكن قليل البخت..دائمًا يحظى باللوم والاستنكار. تكلم عن التضحية بالذات والحال البائس لأهل الأقصر بلا سائحين. تكلم عن الجوع المنتظر، وعن الخطر الداهم في خنادق المتعصبين الذين يريدون الكون طوعًا لأطماعهم، لا يعرفون دينًا ولا
عقيدة، يعرفون فقط القتل والخيانة .

سمع مؤمن في صمت. كلام منطقي في كل الأوقات، وربما كان سيقتنع به أكثر في يوم آخر، لكن ليس اليوم، وليس بعد المكوث شهرًا في زنزانة من العالم السفلي بين الحشرات وفضلات البشر. أكمل الضابط في حماسة: لو فعلها زوجها وقتلها فقد يفر من العدالة. هل يرضى أحد بهذا؟ العدل لا بد أن يكون أساس الدنيا كلها، ولا بد للعدالة أن تطبق على أصحاب الثلج والبشرة البيضاء، وليس فقط أصحاب الشمس والبشرة السمراء. وكأن العالم قسمان: أصحاب الشمس يعانون، وأصحاب الثلج ينتصرون .

قال مؤمن في حنق: وماذا فعلت لأبقى في السجن شهرًا كاملًا؟

قال الضابط: الطب الشرعي، هل رأيت نتائجه؟

لم يجب .

- أخبرك بها إذن. لا لم تكن يان مريضة، ونعم مارست معها الجنس، كذبت في كل شيء.

ابتسم مؤمن في تهكم ولم يجب.

فأكمل الضابط: إنْ لمْ أجد القاتل أفقد عملي، وتفقد بلادي مواردها، وإن لم أجد القاتل سريعًا يزداد الضغط على بلادنا، واعتصارها اقتصاديًّا وسياسيًّا، وكل هذا من أجل مقتل شخص واحد، وكأن أناسهم من ذهب وأُناسنا من حديد، وكأن قنابلهم تمسح على رءوس الأطفال فقط بيد حانية. تفهمني؟

قال مؤمن في تأكيد: أفهمك.

-لماذا كذبت إذن؟

قال مؤمن في هدوء: لم أكذب. أنت وأنا نعرف أني لم أكذب، وأني لم أنم معها. ولكن لو حدث وكذبت ما المشكلة؟ وقت الجريمة كنت مع الفوج الألماني في وسط الأقصر. هل يمكن تغيير هذا أيضًا؟

نظر إليه الضابط في شيء من الغضب، ثم قال: سمير بيه صديقك أوصاني عليك، وإلا كان هذا الشهر هو نهايتك، صدقني. وكنت أستطيع من اليوم الأول أن أجعلك تعترف بعشر جرائم قتل .

سكت لحظات ثم أكمل: تقول إنك كنت مع العائلة الألمانية؟ ولكن لا يوجد عائلة ألمانية تشهد معك. رحلوا يوم حدوث القتل. تفهمني؟

- أحاول.

- ربما بعض الباعة يمكنهم أن يشهدوا معك، وربما لا. حولت لك يان مبلغًا كبيرًا. تشاجرت معك، كانت تود أن تفضحك وتطلب أموالها، أو تلغي التحويل فقتلتها. صح؟

قال مؤمن بعد حين: قصة غير مقنعة. أخذت المال وانتهى الأمر.

- أعرف. وأعرف بالضبط من قتلها ولماذا. أسأت الظن بي، أنا لا ألفق التهم يا مؤمن.

نظر إليه مؤمن ينتظر كلماته ولا يثق به

أكمل الضابط: قتلها أمير عابدين.

فتح عينيه في حيرة، فأكمل الضابط: تعرفه؟ من أبشع الرجال في الأقصر. يبيع السلاح لكل من يشتري، لا يؤمن بوطن أو دين. المال كل حياته. وهناك من يريد أن يضر بلادنا. أنت تعرف من يريد الخراب لنا، وهناك أيضًا من يريد أن يضرك أنت بالذات؟ هل أصبت هذه المرة؟

لم يجب.

فأعاد السؤال: تتفق معي. أم لك رأي آخر في أمير عابدين؟

قال في حسم: أصبت هذه المرة.

-أعرف، وأعرف رجاله الذين قاموا بالقتل، وأين هم وكل شيء عنهم، ولكن ليس لدي دليل. شاهد واحد يكفيني، شاهد متأكد من أنه رأى «أمير» في تلك اللحظة يقتلها أو حتى يحوم حولها. نتخلص منه إلى الأبد. ما رأيك؟

- لا أعتقد أنني أفهمك.

-لألخصها لك. تشهد على أمير عابدين؛ تنقذ نفسك من حبل المشنقة، وتنقذ الناس من شروره. لا تشهد عليه؛ تموت في زنزانتك أو بحبل المشنقة. تفهمني الآن؟

ساد الصمت لحظات فقال الضابط: ولِمَ التردد؟ ليس لك خيار في النهاية.

قال مؤمن في هدوء: تتركني أخرج الآن. أفكر في الأمر.

- أتركك تخرج عندما نتفق.

- أعطني مهلة قليلة. لن أترك الأقصر. ستعرف مكاني.

- إلى متى؟

- أسبوعين لا أكثر.

-حتى تساومه وتأخذ منه المال!

- وماذا ينفعني المال وأنا ميت؟!

- لماذا تحتاج أسبوعين؟

-أعطني فرصة وأعدك أني سأشهد.

- وإذا لم تشهد؟

-أنتم العالمون بكل الحقائق، لا بد أنك تعرف ما سيحدث لي.

- تخرج من هنا ولا تنطق بكلمة. ولو لم تأت في الموعد وتشهد فأنت ميت لا محالة. ولكن قبل أن تموت يا مؤمن سأجعلك تتمنى الموت أيامًا ولن تكون ميتة رحيمة .

* * *

ضوء الحقائق مجتمعة يعمي بصره. أم أنه ضوء القنوات التليفزيونية؟ لا يدري. انهال عليه البشر كأنه قطعة لحم رخيصة يشتريها موظف، أو رغيف خبز مكتمل الأطراف في زمن الجوع. هل دفعت به الشخوص؟ هل وقع أرضًا؟ وكزه أحدهم في بطنه مرة أخرى. تذكر ضربة ووخزة عصا أمير عابدين في كبده. ألم يأت وقت الانتقام؟ الجنوبي لا يتنازل عن حقه. الحق شرف وعزة، دونه يصبح كأطفال الشوارع ومتسولي القاهرة عرضة للضرب والقتل في أي لحظة. الحق واجب وحقيقة مطلقة.

هل شعر باختناق؟ أمسك به أحدهم وساعده ليقوم. انهالت على مؤمن الأسئلة بكل لغات العالم. وكأن العالم ينتظر «مؤمن» ليفهم كل الحقائق. سألوا وأجابوا.......

" من قتل يان؟ هل كنت على علاقة بها؟ ما رأيك في ثورة الشباب على الظلم؟ ما رأيك في الغرب المستغل القاسي؟ يتصيَّد لنا الهفوات ليقتلنا جوعًا؟ حادثة تحدث في أي مكان؛ هنا تعني كل شيء، وكأن مصر مصدر الكون، وكأن ما يحدث هنا هو فقط الذي يعني العالم، ويغض الطرف عن كل الظلم والظلمات في بقية أركان الكرة الأرضية. هل توافق؟".

" قتلها زوجها وفرَّ بجريمته لأنه غربي. ودمنا رخيص ودمهم رقائق ماس. سيدفع ثمنها مصري فقير. يقتل ألف مصري ولا يتم المساس بالغربي. هكذا البشر أصناف وأنواع كالجبن تمامًا. نحن جبن قَريش رخيص، وهم أجبان سويسرية مستوردة تتكلف آلاف الدولارات."

"كانت كل ما هو جميل في عالمنا. تريد الحق والمساواة مثلها مثل القديسين والأبطال، اغتيلت كما يُغتال من يريد السلام والعدالة؛ لأن الظلم لا بد أن يسود. هناك من ينادي بالعدالة لك ولها. هل تعرف؟ انفجر الغضب من أجلك في كل مكان. الغاضبون يلومون أصحاب القوة، يلومون من يريدون إذلالك وملاحقتك. يصرخون في وجه البنادق المصوبة لأعينهم بلا خوف. يضحون بالثمين، بالنفس والبصر لتنكشف لهم حقيقة كل الأشياء. تفهمني؟ تصدقني؟ تتفق معي؟.

« لو بقى الغرب يغض الطرف عن الظلم والتعذيب سيطوله هو أيضًا، وها هو ذا طائله، ألا تتفق معي؟».

"تكلم. جاوب؟ تفهم؟ ماذا فعلوا بك؟ عذبوك؟ حرقوك؟ قطعوا أطرافك لتعترف بجريمة لم تفعلها؟ أنت لا شيء بالنسبة لهم. يريدون أن تحيا البلاد، فكرة مجردة، وليحترق الشعب، من يبالي؟".

»لا تجب. إنهم يكرهون بلادك، يتمنون لها السقوط والانهيار ككل بلاد الشرق. ها هي الحقيقة أمامك. تراها وتعرفها. أمسك بها وأخبر الجميع عنها. إنها بلادك وشمسك، عرضك ووطنك. حتى لو قست عليك فهي كأمك، ليس لك سوى وطن واحد، وبعده تعيش يتيمًا. لا تتخلَّ عنه. هو الحقيقة الوحيدة. كلهم جواسيس، وكم من مرة في الماضي حاولوا احتلالك وتدميرك! أنت الباقي. أنت الرجل، دافع عن عرضك. إنه الإرهاب يريد النيل منك، ستصبح أختك وأمك سبايا لأمير إرهابي وسيغتصبها معًا أمام عينيك.«

" لا يستطيع التنفس. سيموت هكذا. ابقوا بعيدًا. ابتعدوا، اتركوا له فرصة ليتكلم. مؤمن الوكيل. تكلم. قل الحقيقة. العالم يسمعك ويفهمك. كل العالم ينتظر الحقيقة منك. أنت تعرفها. تكلم. لا تخفِ الحقيقة. الحقيقة حق لكل البشر. واجبك أن تكشفها لهم. وأنت تعرفها. تكلم".

ابتعدوا كلهم. الآلاف. لا بد أنهم آلاف. يتمنى على الأقل أن يبقوا في الأقصر بعض الوقت، يزورون المعابد ويركبون الخيول، ويستأجرون المرشدين. هذا ما كان يفكر فيه في تلك اللحظة .

تنفس في بطء. نظر حوله خلال الظلام الذي يحيط به، ورءوس الصحفيين كلها سواء بالنسبة له، والصوت يعلو ويصبح عدوانيًا وقاسيًا: "تكلم. ما عملك؟ من تكون؟".

قال : مرشد سياحي. ولا أعرف شيئًا. أي شيء.

صاح الجميع. تعرف كل شيء. لديك كل الحقائق. تكلم.لا تخف. نحميك ونصدقك.

قال في إصرار ووضوح: أنا فقط مرشد سياحي، لا أعرف الحقيقة.

قالوا في كلمات متناثرة ولكنها واضحة: كاذب. لِمَ الكذب؟ الحقيقة أمامك واضحة.

بدأ يدفع بهم ليسير في طريقه، وقال: ليست واضحة بالنسبة إليَّ، ولكنكم تعرفون كل شيء. أنا أرشد السائحين للماضي، ولا أعرف الحاضر. أنتم تعرفونه. وتبدعون في كتابته كل يوم. اتركوني.

-كاذب.

-خائف.

-دفعوا له.

-بل هددوه.

دفع بهم في قوة، وركب سيارة في انتظاره، واختفى عن الأنظار.

كتب كل صحفي قصته. طعمها بالصور والفيديوهات. كانوا جميعًا يعرفون الإجابة، ولا يحتاجون من مؤمن سوى التصديق عليها. لم يصدق عليها، ولكنها واضحة بالنسبة لهم كوضوح الشمس والقمر وكل الكواكب. واختلفت زوايا الحقيقة، ولكن كان لكل منهم زاوية واحدة واضحة وصادقة، ولكل راوٍ قصة ومريدون ولكل مستمع راوٍ وواقع. طُمست الزوايا وأضيئت .

وفي الصباح كانت كل الآراء تفصل بين الناس كالبحور وجبال الجليد، ومؤمن ينام في حجرته بعد أن بقى مستيقظًا شهرًا بأكمله.

نام ولم يشعر بشيء. شكر صديقيه محمود وسمير، كانا في انتظاره. كان يعرف، ولم يجد عائلته. كان يعرف هذا أيضًا. بعض الحقائق واضحة له منذ زمن. وبعضها يلتبس عليه هذه الأيام.

نام يومًا أو اثنين لا يتذكر.

* * *

مر شهر قبل أن تجد الأم رقمًا غريبًا. أجابت وقلبها يقفز من الفرح، تتمنى أن يكون هو. سمعت صوته. كان الأخ في البيت، وكان لا بد أن تخفض صوتها. قامت في خطى متثاقلة، أغلقت الباب وهمست: أنت بخير؟

قال في صوت قوى: بخير. لا تقلقي عليَّ. لن يحدث شيء، صدقيني .

لم تكن تستطيع الرد، سقطت الدموع في صمت، فأكمل: لم أفعل شيئًا. أريدك أنت فقط أن تصدقيني.

-أصدقك.

قال: منعك من الكلام معي؟

-هو فقط غاضب، تعرفه، سيصفو بعد قليل. أخوك. اطلب مساعدته. اتصل به، واطلب مساعدته.

صمت برهة. لم يكن ينوي أن يطلب مساعدته، ولكنه قال: سأفعل. هل أنت بخير؟

-أتمنى رؤيتك. كيف يمكن أن أراك؟

-سأتصل بكِ قريبًا، بعد بضعة أيام. لا تقلقي عليَّ أنا بخير. سامحيني. لم أقصد أن أتسبب لك في ألم. سامحيني.

همست: أسامحك، وأدعو لك.

أغلقت التليفون وهي لم تزل تتحرك حركات روتينية، والقلب يمتلئ بأسى غير متوقع، والابتلاء كبير بكبر النهر وطويل بطوله.

* * *

هزَّه محمود يوقظه قائلًا: مؤمن. علياء تسأل عنك كل يوم.

بدا مستيقظًا. لم يجب. كان ينام على جنبه الأيمن كما نصحته أمه، وعيناه تنظران إلى الأفق. الزنزانة المكتظة العفنة، رائحتها لا تترك أنفه. ظلامها غير كل الظلمات، فأحيانًا كثيرة كان الظلام رحمة وانكشافًا، ولكن في الزنزانة هو عجز وطمس لكل الأسماء. استحم مرات ومرات، يريد أن يزيل آثار القاذورات والأناس المكومين كالقمامة بجانبه. أيام طويلة،
وأقساها وأكثرها إيلامًا تلك التي يتسلل الريب في النفوس بأن الغد لن يأتي، وأن البقاء داخل الزنزانة هو العمر المكتوب وزوايا الأزمان الباقية أبدًا.

في السجن كان لديه متسع من الوقت ليتذكر جثة يان. تذكر الحرق في الجسد والجروح في الوجه، ولكن ما أرعب القلب كان الساق المبتورة. طموح يان وجريها وراء السعادة أدى إلى كسر ساق وراء ساق. وكيف يتأكد من أن الضعف بداخله لن يبتره كما بتر يان حيًّا وميتًا؟

كانت يان وحيدة في رحلتها الأخيرة، ويقين الموت يعمي الأبصار بضوئه الساطع. وكانت مغامِرة ورحّالة. كانت يان في بداية رحلتها مثله، لا يعنيها سوى الوصول والمجازفة. لهثت وراء الوصول. فللمغامرة بريق يدمنه المسافر، وخاصةً إذا كان وحيدًا في رحلته. وللوحدة قوة ليس بعدها قوة، وللروح المستقلة هيبة ليس بعدها هيبة، أما العشق فيقهقر الجيوش، ويملأ الروح بالشجن. في رحلات الوحدة لا بد من تجنب الضعف. والعشق هو كل الضعف، وعند الوصول يتجلى الندم على العُمر الضائع، ويبدأ البحث عن الروح التائهة وسط الأطماع.

مخيفة يان. وحياتها ترعب أكثر من جثتها المشوّهة .

قال محمود مجدَّدًا: ماذا أقول لها؟ تريد أن تراك. ستأتي لتراك. لماذا؟ ماذا حدث بينكما؟ مؤمن؟ إياك أن تكون غررت بها. لا يمكنك أن تحارب والدها. لو عرف سيقتلك، أنا متأكد من هذا. يبدو أننا سنكون كلنا ضحايا لكل النساء في حياتنا.

قال في حسم: لا يمكن أبدًا أن تأتي هنا. لا يمكن. لا أريد إيذاءها، يكفي ما حدث. لا أريدها أن تضر أكثر بسببي. أخبرها ألا تأتي. اطلب منها في إلحاح ألّا تتصل بي الآن.

قال محمود في حيرة: تخاف عليها؟ تحبها أم ماذا؟ قالت إنها تريد أن تراك.

صمت. جلس على السرير وعيناه زائغتان، ثم قال: ستراني قريبًا. لا بد أن تصبر. تكلم معها الآن، أمامي، أخبرها أن تصبر.

أمسك محمود بالتليفون، فقال مؤمن مسرعًا: ليس هنا. خذ التليفون. خارج البيت.

كان متأكدًا أن كل تليفوناته وأماكنه مراقبة، وأن كل من يتصل بهم عرضة للخطر، وأنه الآن أهم رجل في العالم، وأكثر رجل لا بد من التخلص منه .

همس في أذن محمود : اتصل بها من تليفون غير تليفونك .

ربما لا بد أن يراها، ربما يحتاج إلى أن يراها في مكان يتوه فيه البشر، ولا يعبأ الراحلون سوى بمواعيد الرحيل.

صمت لحظات. ماذا يقول؟ ثم أكمل: سأقابلها في محطة رمسيس بعد يومين، أخبرها ألا تتكلم معي ولا تتجه إليَّ. فأنا الآن أحمل وباء. لا شفاء منه. تفهم قصدي؟

-أعرف قصدك. سأخبرها.

علياء... لا بد أن تبقى بعيدة عن كل اللاهثين وراء الحقائق، وكل اللاهثين وراء إخفاء الحقائق وما بينهما. وبدأ مؤمن يفكر في الحقائق من منظور مختلف، ويحاول إدراك هذا الهوس بالحقيقة. وكتابتها وطيها داخل درج في مكتب قديم ونسيانها. وكأن الحقيقة ستعيد للمظلوم حقه، وتطعم كل الجائعين، وتقتل كل غادر، وتحنو على الأطفال المحترقين والغارقين، وتروي كل حدائق العالم، وتزرع الزهور فقط، وتبتعد عن النباتات المسمومة، والأشجار التي تعتصر جهد الفقير، وتشتري منه كل جسده ونفسه، ولا تعطيه سوى العسل المسموم. ولماذا كل الهوس بالحقيقة؟ لتؤكد لنا ما اقتنعنا به دومًا؟ ولو كانت الحقيقة مختلفة عن توقعاتنا؟ فهي بالتأكيد ضلال مبين وليست الحقيقة .

تمدد على سريره وأيامه الماضية والقادمة كلها ظلام. سينقذ نفسه ربما، ومع الوقت سينسى هو والآخرون. وستتفتت الحقائق، وتتلاشى بين بذور الزهور، ولن يكترث بها أحد.

جاء لأمه خائفًا وهو طفل. سمع عن جنية النهر التي تُمسك وتغوص في النفس، ولا يمكن إخراجها، تبقى مع كل من يزعجها ليلًا. وكان يعشق البقاء بعد الغروب داخل مياه النهر، يشعر بالصقيع القادم مع القمر، وترتعش قدماه الصغيرتان، وهو يسبح بلا أرض تطأها القدمان. كان خائفًا عندما سمع عن الجنية. وجاء إلى أمه، دس رأسه بداخل صدرها، وهمس: أحب النهر ليلًا. وأخشى الجنية. لا بد أنها تتحكم في الآن. بداخلي أليس كذلك؟

ربتت الأم على كتفه: هل رأيتها؟

-الكل يعرفها؟

-رأيتها؟

-شعرت بها؟

-يا بني. لا تصدق سوى ما تراه، وحتى العين خداعة. أقول لك شيئًا: لا تصدق سوى ما تشعر به في أعماق الأعماق.

أشارت إلى قلبه: هنا، في قلبك، العين تخدع والحكايات كثيرة، والبشر بذاكرة قصيرة وهوى طاغٍ. هل تشعر بالجنية بداخلك عندما تسبح ليلًا ؟

صمت الطفل ثم قال: أحيانًا.

-لا تسبح ليلًا إذن.

-لا، لا أشعر بها. ليس لها وجود.

قالت في عتاب: وأيضًا. لا تسبح ليلًا.

أغمض عينيه وتذكر، وأمه في خياله دائمًا بوجه طيب ونفس بيضاء .

عاد محمود وجلس قائلًا: أخبرتها.

نظر إليه مؤمن، ثم قال: هل قالت ماذا تريد؟

هزَّ رأسه بالنفي ثم قال: ماذا ستفعل الآن؟

-دين لي عنده. أعطيه إياه ثم نقرر. جاء وقت رد دين أمير عابدين. سينتهي الأمر. عزمت أمري.

* * *

أمير عابدين بدأ ملحمة عدائه لمؤمن منذ زمن. وكانت كلمة السر في هذا العداء هي الاستغناء، فمؤمن منذ البداية لم يقدم فروض الطاعة لأمير ولم يظهر إعجابه بقدراته ونجاحاته ونفوذه وغناه، بل بدا منذ البداية أن «مؤمن» لا يكترث

بأمير، ولا يبدي أي إعجاب به. هذا الكبرياء وهذه الثقة وتلك القوة بلا سبب واضح تقلق وتهدد «أمير» أكثر من أي شيء. لهذا
الاستغناء وقع الذل بالنسبة لأمير. كل المرشدين يتمنون العمل معه، وكلهم يقدمون فروض الطاعة ويعترفون بالقائد، إلا «مؤمن»، فهو لا يعترف به. للغيرة قوانينها الخاصة، وللحقد قصته الطويلة.

وكان مؤمن قد خطط ليوم رد دين أمير منذ شهرين، ولن يلغي خططه الآن. مهما جرى. فلا بد لأمير أن يتعلم، ولا بد لمؤمن أن يكون موجودًا وقت فرز الحقيقة وإعطاء الدرس.

وكان اليوم أيضًا هو اليوم الذي ينتظره جميع من يعمل في السياحة. واليوم يأتي والأقصر خالية من السائحين كما تخلو مدن الحروب والغارات. ولكن تألقها لم يمس، ومعابدها لا تبالي، فلا وجود السائحين يزيد وطأة عمرها وتحملها، ولا غيابهم يزيد وحدتها. بقيت الآثار كما هي تحمل في طياتها كل الحقائق، تخفي بعضًا منها، وتظهر القليل. أما أمير
عابدين فخرج في كامل زينته صباحًا ليلقى الخطبة أمام الوزير والمحافظ، ويقسم أن السائحين قادمون، وأن الأزمة عابرة، وأن الجميع لا بد أن يتحمل في صبر وتفاؤل. وكان يطمع في منصب هنا أو هناك، ولا يدري بما يدبر له من بعض أعدائه في المراكز المهمة، ولا يعرف أنه وهو يبتسم ويطري على الوزراء يودع أيامه القادمة. فتح له السائق باب السيارة، هم بالدخول وفي لحظات كان السائق خارج السيارة مكبّلًا وحارسه الشخصي مكتوف الذراعين، ومسدس مصوَّب إلى رأسه، وعصا سميكة تلوح له. نظر لليد التي تمسك بها، وكانت لمن يعرفه جيدًا. قال في تهديد: إياك. أقتلك وتعرف أنني أستطيع.

لم يبال مؤمن بكلماته، ضرب ذراعه اليمنى ضربة قوية، وقال: الجبان من يضرب في الخفاء ولا يظهر وجهه. لا تتجرأ عليَّ أبدًا مرة أخرى. اذهب للمؤتمر بذراعك مكسورة لتمنع الأذى عن الناس .

صرخ أمير، وصاح في عصبية بأن ذراعه قد كسرت، وبأن «مؤمن» لا بد أن يموت اليوم؛ فقد كسرت ذراعه. اختفى مؤمن وعاد كل شيء كما كان. السائق واقف والحارس جالس بجانبه في العربة، وأمير يصرخ من الألم ويصيح: أريده جثة اليوم. اليوم.
قال حارسه: والاجتماع؟
- لا بد من الذهاب إلى المستشفى أولًا ثم نتخلص منه. إنه لا شيء.

* * *

الخصوصية في مصر لها الكثير من المعاني، وقليلة الوجود إلى أبعد حد، ولكن في أماكن معينة يتوقعها بعض الناس ويتمنونها، مثلًا وقت دخول الحمام وقضاء الحاجة أو الاستحمام أو النوم أحيانًا. تعلَّم مؤمن ألَّا معنى للخصوصية في حياة رجل بأهميته ومسؤولياته؛ فشرف التعذيب في مصر بين يديه، وكلمة منه يقول فيها إن يان قتلت عن طريق حكومته تقيم الدنيا بأكملها، وتقضي على المستقبل الاقتصادي والسياسي وعلى المعاهدات والاتفاقات، وكلمة أخرى بأن يان قتلت عن طريق جماعة إرهابية لا تخاف الله تعيد ماء الوجه وترفع الرأس، وترد الأموال المختلسة والآمال العريضة. فهم مؤمن وعرف كيف يفقد كل خصوصيته، وأن كاميرات المراقبة الحديثة ليست ملتصقة بالحائط وواضحة كما يتوقع، بل ربما تكون جزءًا من مفتاحه، تليفونه، محفظته، أي شيء وكل شيء. بدأ التفكير جديًّا في كل تصرف وكل كلمة وكل مكان يذهب إليه. وبقى مع نفسه كثيرًا يفكر.

* * *

عندما أخبرها محمود أنه لم يكن هاربًا أو مسافرًا كما كانت تظن، بل كان في السجن، وعندما بدأت قراءة الجرائد وتتبع الأخبار، بدأت تتهاوى من الفزع.

انحنت وهي تحيط رأسها بيديها، وتحاول أن توقف العقل عن الاستيعاب، فلن تستطيع الفقد الآن بعد أن بدأ الالتئام وظهر الضوء، ولا يمكن أن تترك الضوء وتعود إلى الكهف المظلم من جديد. فلا بد أن تتأكد من أنه بخير، وأن العمر لم يتسرب منها مرة أخرى، وأن لمساته لن تكون مجرد ذكرى تبقي عليها في القلب كما قال وكما أمرها. ورؤيته تعذبها أكثر من عدم رؤيته. ماذا يتوقع؟ أن تراه ثواني ولا تتكلم معه، ولا تطمئن على قلبه ولا عينيه؟ يريدها أن تراه ثم يرحل. لا يستطيع البقاء بعيدًا عن الأقصر سوى ساعة لا أكثر. لماذا؟

لم تنم ليلتها، احتضنت جسدها على سريرها وبقيت ساكنة تتذكر ليلة قضتها بين ذراعيه، وكانت ربما كل الحنان الذي ستعرفه إلى يوم موتها، فالرحيل أسهل من البقاء، والفقد مستساغ ومعروف. ارتعدت، كان في السجن شهرًا، وربما يموت في السجن، وربما يعدم، وربما تقف القضبان حاجزًا بينهما كما وقف الموت حاجزًا بينها وبين أمها.تتذكر، بدا أنه في الليلة التي قضتها بين ذراعيه، كانت ترتجف بين الحين والآخر، فيهمس لها بكلمات، ويحتضنها أكثر، ويربت على كتفها كأنها طفلته الصغيرة، فتغوص داخل جسده وتسكن فيه، ويهدأ الخوف ولو ساعات. ستراه غدًا. وعدها محمود أنها ستراه غدًا. فلماذا يتهاوى القلب وسط اليأس؟

في الصباح لم تنظر لنفسها في المرآة، ارتدت ملابسها بسرعة. واتجهت إلى الباب قبل الموعد بساعات، وعند الوصول إلى المحطة بقيت بداخل السيارة في انتظار الميعاد، لا بد أنه سيأتي، ستنتظر في صبر. فهذه الساعات بلا معنى ككل العمر الماضي، وربما الباقي. وضعت رأسها على عجلة القيادة والدموع تترقرق في عينيها، لم تبك، فالخوف أكبر من كل الدموع .

مرت الدقائق ثقيلة، كالأمطار الغزيرة، لكنها مرت وخرجت من سيارتها، واتجهت إلى الكافيتيريا كما اتفقت مع محمود. في المحطة اصطدمت بالكثيرين، بعضهم يجري ليلحق بالقطار، وبعضهم الآخر يجري ليودع مسافرًا، بعض الناس يريدون العودة وبعضهم يريد الرحيل. وهي بينهم لا مكان لها في هذا العالم، تائهة وسط الراحلين والمودِّعين. دخلت وعيناها تبحثان عنه. وجدته. وتهاوى الألم في الأعماق، وانكسر الظلام. جاء الارتياح ثم الشوق .

كانت تشتاق إليه شوقًا لم تكن تدري أنه يكمن في أعماق النفس. كان جالسًا ينظر إلى ساعته. عيناه منكسرتان بعض الشيء، ووجهه شاحب، تمنت أن تحتضنه الآن في هذه اللحظة أمام الجميع بلا قيود وبلا خوف. جلست إلى طاولة أمامه، التفت إليها. التقت أعينهما. كانت عيناه تائهتين غير واثقتين. هل ظن أنها تخلت عنه؟ هل أراد إبعادها؟ لا تدري. ابتسمت
له، أخرجت من حقيبتها قلمًا، وكتبت على المنديل الورقي بحروف كبيرة كلمتين فقط .

أعطت الجرسون المنديل قائلة: اسمح لي، أعط هذا المنديل لهذا الرجل هناك.

اندهش بعض الشيء، ولكن لا بد أنه رأى الكثير من البشر، ففي لحظات الفراق يظهر كل الجنون. أعطاها لمؤمن، فأمسك بالورقة في حيرة.

تفحصت وجهه وهو يقرؤها، رأت عينيه تشرقان وكأنهما تريان الأفق البعيد بوضوح الآن وابتسامة بسيطة على شفتيه. طبق الورقة بعناية. وضعها على فمه، وقبلها قبلة متقنة تحمل كل العذاب وكل اللهفة وكل الماضي والحاضر. سمع صوت الإعلان عن وصول قطاره. قام في بطء. اقترب من طاولتها مدَّت يدها تحت الطاولة بلا تفكير والخوف عليه يحرق حلقها، والتنفس أصبح صعبًا هذه الأيام. أمسك بيدها في قوة لثوان ربما ثم تركها ورحل .

داخل القطار، أغمض عينيه وهو يسمع الكلمات بصوتها داخل قلبه: أحبك. وأصدِّقك.

هكذا كتبت. صاحبة هذه الرحلة وكل الرحلات.

علياء. اللؤلؤ المكنون وضعف الروح والماضي. جنونه الوحيد وكل قوته.

هل لا بد للكون أن يستقيم عند نهاية رحلته؟ هل لا بد للرحلة القصيرة أن تنتهي عندما توشك الحقائق أن تنكشف، وتوشك النفس على الوصول إلى مرادها؟

وهل سينقذ نفسه بكل سهولة ويبيعها معًا؟

"أحبك وأصدِّقك".

كانت تعذبه وهي لا تبالي به، تحرقه وهي عالية زاهية بعيدة المنال، وتعذبه أكثر وهي تحبه. كان يظنها مَلَكًا لا يلمسه البشر، وها هي ذي أمامه، كلمات ينطقها وتصبح له. بين ذراعيه للأبد. تريده وتحبه. هل استقام الزمن أم أنه يلعب به لعبة أخيرة ويتفتت بعدها إلى أبد الآبدين؟ لديه متسع من الوقت في هذه الرحلة ليفكر، ويفهم، ويشتاق.

أيام منذ زمن قضاها مغتربًا في حجرته المتواضعة في بيت الطلاب، وهو يشتاق ولا يدري إلى ماذا يشتاق تحديدًا، فلم يتصورها مرة بين ذراعيه. كان لها قدسية مختلفة عن كل النساء. فهي المَلَك الذي لا يمسه البشر. ولا يتخيل من جسدها سوى ما يرى، ولا يمارس الحب معها في أحلامه، كانت هناك، في المكان الآمن داخل النفس، في أعماق الأعماق دائمًا
بابتسامة بريئة ووجه أميرة من كوكب آخر. وعندما فكر شهرين أن يخاطبها، أن يرى عينيها تنظران إليه هو فقط ولو مرة، تقدم منها في خجل وعيناه تنظران إلى الأرض وهمس بسؤال لا يتذكره. ابتسمت. لا بد أنها ابتسمت، فلا يزال يتذكر ابتسامتها، ولم تسمع سؤاله فطلبت منه أن يعيده باهتمام وطيبة، أعاده في ارتباك. فتحت كراستها وقطعت ورقة وأعطتها له. فأمسك الورقة وهي كنزه وكل ما يملك منها، قرَّبها إلى قلبه ونام. لم يزل يحتفظ بالورقة بين طيات كتبه القديمة.

"أحبك وأصدِّقك".

جنون المراهقة الكامن في الأعماق لا يخمد بأجساد النساء الجميلات وإشباع كل الرغبات، فهي باقية كذاكرة المعابد. باقية ككوكب منطفئ لا يضيء ولا يحترق.

أحبها من جديد. وفي تلك المرة كان يريدها كامرأة، وليس فقط كملك لا يستطيع لمسه. كسرتها الأيام وقوته. فلا هو الخائف البريء ولا هي بعيدة المنال. جاءه العالم واستلقى على ركبتيه بكل ضعفه وقوته وبكل تناقضاته. رأى وفهم. تعلَّم وتناسى، وعندما سمع خبر خطبتها أزاح الماضي في مكانه البعيد واستمر .

دفن الأسى والجنون، وتقهقرت النفس داخل يأسها واستمر.

هذا النوع من العشق لا يقوى عليه أصحاب القلوب الضعيفة. عشق المغامر والمقاتل.

عمقه يصل إلى أعماق النهر، ويسامر الصخور والأسماك المرهقة من برودة الشتاء.

لا يتزحزح ولا يضطرب. حاول مرارًا أن يتخلص منه ولم يستطع. استسلم واستمر.

وعندما كسرتها الأيام كان هو من يعرفها أكثر من الجميع، فقد قضى عمره يذاكرها ويفهمها. أتقن الفهم في أثناء رحلة طويلة قام بها وحده داخلها وحولها. ولم يصدق الشائعات؛ فهو يعرفها كما لم يعرفها أحد. عند الانهيار كان لا بد أن يبقيها واقفة، ويساعدها على الالتئام، ففي انهيارها انكساره، وفناؤه ونهاية أهم رحلاته .

»أحبك وأصدِّقك.«

يتذكر جيدًا. ولا يستطيع النسيان، في تلك الليلة وسط الموت، في حجرة الفندق، ارتجفت بين ذراعيه شوقًا إليه، كما اشتاق هو عمرًا. نظرت إليه في ارتباك وكأنها تطلب منه أن يرشدها إلى نهاية هذه اللهفة وهذا الانتظار. تحسست صدره بيد غير واثقة وقلب يبغي الوصول. فعلت. الخوف يُذهب العقول ولكن للحب جنونه الخاص، يعرفه، عاش معه واستقر في
النفس .

بدا له أن الوصول مستحيل في هذه الرحلة. وأنه لا يستطيع أن يرشدها، فهو لا يعرف الطريق.

«أحبك وأصدِّقك».

هذه الكلمات تطمس كل الطرق، ولكنها تجعل الوصول غاية وهدفًا.

نظر إلى عجلات القطار المنهكة، تسير في بطء ثم تتوقف. وأكياس القمامة الممزقة تغطي كل القضبان. افترستها القطط والكلاب، ونهشها الباحث عن شيء ثمين. بقيت القمامة تغمر رحلته كلها، وكأن في السفر لا يبالي الراغب في الوصول بالقاذورات والرائحة العفنة.

هل يتوقف القطار كل برهة لأنه يحارب كل القاذورات التي تدفن عجلاته أم لأنه تعب من السير؟ أم يعطيه الفرصة ليخرج، فلا بد أن الوقت قصير والكلمات كثيرة .

أمسك بحقيبته، وضع بداخلها تليفونه المحمول ثم تركها على المقعد، التفت حوله وقفز من القطار، وجرى وهو يتمنى أن يتخلص من كل العيون في الخارج والداخل وكل المؤسسات والحكومات. جرى كثيرًا. حتى وصل إلى المحطة. لم ينظر وراءه ولم يعد يبالي، كانت أنانيته تطغى عليه دائمًا، فلماذا الآن يخاف عليها ويضحي بمراد النفس؟

نظر حوله يبحث عنها. جرى إلى الكافيتريا. ما زالت جالسة وهي تنظر بعيدًا لا تأبه بأي شيء.

قامت في هدوء واتجهت إلى الباب. كان أمامها، قال وهو يمسك بيدها في قوة: أريد أن أتكلم معك.

همست في فرح لم تشعر به منذ وفاة والدتها: لم تسافر؟

لم ينطق، شدَّ يدها، خرجا من المحطة. نظر حوله، للزحام والأناس في كل مكان. قبل أن تنطق كانت داخل تاكسي إلى شركة سياحة يعرفها. أبقى يدها في يده بلا كلمة، ثم أشار بيده إلى الرجل الجالس إلى المكتب في شركة السياحة، فسلم عليه بحرارة، فقال مؤمن وهو يفتح غرفة مكتب بجانبه: هل يوجد أحد هنا؟

هزَّ الرجل رأسه بالنفي، فدخل معها. أغلق الباب وأرخى الستار، ثم قال :

-اعذريني. لا أقصد معاملتك بطريقة غير لائقة.

اندفعت نحوه بكل قوتها وعانقته في قوة لم تكن تعرف أنها بداخلها. أفقدته توازنه وكل كلماته .

بقيت بين ذراعيه، كانت تحتاج إليه منذ زمن. قبَّل شعرها، وأحاط كتفها، وأسند رأسه على رأسها، وقال: الرحلات كلها أوهام. تخفي الحقائق وتطمس كل الهويات. كانت رحلة. أخاف أن تكون رحلة بالنسبة إليك .

همست وهي تقبل خده: أنت كل الحقائق.

ازدادت قبضته على خصرها، وقبل عينيها، ثم خدها وفمها، وهي تنبض بالارتياح واللهفة. فهو لم يزل معها ولم يزل حيًّا بعد برهة قال في حسم: لا تفعلي هذا بنفسك. لا تعرفينني. أخاف عليك، رقتك حادة كأفضل أنواع الزجاج تتحطم في ثوان وجرحها قاتل.

لم تجب. همس لنفسه ولها وهي لم تزل بين ذراعيه: لماذا تثقين بي؟ من أدراك أنني لم أفعل شيئًا؟ والأسوأ من أدراك أنها إذا طلبت مني أي شيء مقابل هذا المبلغ لم أكن لأفعله؟ كيف تعرفين الغيب؟ لم تري شيئًا. تصدقين رجلًا لا تعرفينه؟ رأيته في رحلة نيلية؟ أي سذاجة هذه ؟ لا بد أنك تحتاجين إلى وقت، فكري جيدًا. الفرق بيننا أكبر مما تتوقعين. والمشاعر تعمي العين والنفس. تخدع كل الحواس.

ابتعدت عنه بعض الشيء، ثم همست: هل تخاف عليَّ أم تخاف مني؟

جلس على المقعد وهو ينظر إلى لا شيء، ولم ينطق، التبس عليه الأمر، كل الأمر .

فقالت في حماس: قلت لي إن في المحاولة يكمن الانتصار. قلت هذا؟ تحبني؟

قال بلا تفكير: أعشقك، تعرفين. وإذا قضيت حياتي في السجن ماذا تفعلين؟ تنتظرين عمرًا؟ الآن أنا مصري، يتحمل كل ضغوط العالم، وكل سياساته وكل اتجاهاته وكل ذنوبه، سينتهي أمري لا محالة، ولا أدري هل أريدك أن تقاسي معي أم تعيشي بعيدة عني؟ اختلطت عليَّ كل الأمور.

جلست على الأرض وأراحت رأسها على ساقه، وأغمضت عينيها، وقالت: أنت تخبرني ماذا نفعل، أنت ترشدني إلى الطريق، تفعل ذلك مع الجميع.

مرَّ بيده على شعرها. لا تترك له الاختيار. يريدها الآن في اللحظة والتو. وإلى الأبد. من تمكث على ساقيه في استسلام هي كل ما كان يريد، كل المستحيل، هي كل التوق واللهث بلا أمل سنوات. قال في حسم: تبقين معي، وإذا مت أو سجنت تبقين معي، وإذا أخطأت تبقين معي، لن أتركك هذه المرة، ولا أبالي بشيء.

ابتسمت، وهمست باسمه وهو لم يزل يمرُّ بيده على شعرها، أمسكت يده وقبلتها في بطء، ووضعتها على خدها لتنام عليها طوال العمر الباقي. ساد الصمت، كان يريد أن يبقى معها هكذا طوال اليوم وغدًا وبقية الرحلة.

قالت في حنان: أنت بخير؟

صمت لحظات. وجودها على ساقه هكذا، تمسك بيده وتقبلها وكأنه يملك كل العالم، بدأ يربكه قال: أنا بخير. وأنت؟ ماذا فعل والدك؟

نظرت إليه، فجلس بجانبها على الأرض وقال: احكي لي كل شيء. كل ما حدث.

حكت وحكت من البداية، ثم قالت في استياء: يريدني أن أتفاوض على حقي مع الظالمين والفاسدين، كيف؟

ابتسم.

أحاط وجهها بيديه، وأزاح شعرها، وكأنه يريد أن يتأكد من أنها معه، ثم قال: مثاليتك صادمة ورائعة، والدك يحبك بطريقته، لا بد أن تثقي في هذا، سأطلب يدك من والدك اليوم، لن يوافق، ولكنني سأتزوجك، سواء وافق أو لم يوافق.

قالت في يقين: سيوافق.

أطالت نظرها إليه، وقالت في حسم: مؤمن خلِّ بالك من نفسك. أنا لا أستطيع العيش من غيرك، تعرف ذلك؟

سمع دقًّا على الباب قال صديقه: مؤمن، الساعة الآن الخامسة.

قال بصوت عالٍ: اتركنا ربع ساعة فقط، وأعدك أول فوج للأقصر ستكون أنت وشركتك مسئولين عنه. تعرف وعودي.

صمت الرجل.

قال مؤمن وكلماتها أزعجته لا يعرف لماذا: بالطبع تستطيعين العيش بعيدًا عني، عشت من غير خطيبك من قبل. أنت قوية دائمًا.

قالت في حسم وهي تمسك يده: أنت مختلف. ما أشعر به ناحيتك مختلف. أنت كل شيء بالنسبة إليَّ.

قال وكلماتها أفزعته كالاحتضار ثم الموت: لن يحدث شيء. لا تقلقي.

نظر إليها، ثم مد يده وقال: تعالي هنا.

اتجهت إلى صدره، ودست رأسها في زاوية رقبته، أحاط خصرها وبقي ساكنًا.

استسلامها، وقلبها الذي سكبت كل ما بداخله أمامه بلا خوف ولا كبرياء بدآ يشعرانه بشيء من القلق والألم، لا يعرف لماذا. فقد سيطرت على كل نفسه بلا رحمة، وألقت بكل ضعفها على عاتقه بلا هوادة.

قالت في شيء من التردد: مؤمن.

كانت تريد أن تشكره، أن تعشقه كما يستحق، أن تخبره أنها تعرف أنه كان حولها دائمًا، وأنها من غيره كانت ستتوه في المتاهة ولا تجد الطريق للخلاص. تريده أن يعرف، ولكنها ترددت. فهو لم يتكلم عن الماضي، ولا عن حبه الصامت البائس. كان ينكر معرفته بها تمامًا قبل هذه الرحلة، لا بد أن اختراق هذه الزاوية سيضعفه ويربكه، وهي لا تريد هذا.

قال وهو يمر بيده على خصرها: نعم.

-ماذا سنفعل الآن؟

قال في بطء: نبقى هكذا حتى يطردونا، افتقدتك.

قالت وهي تقبل عروق رقبته النابضة: هذا الحب غريب. مؤلم بعض الشيء، ومخيف، لم أكن أدرك أن هناك حبًّا كهذا.

قبّل كتفها وقال في تأكيد: مؤلم نعم، أعرف، يمكنني أن أحكي لك عن الألم، أعرفه، والعجز أحيانًا. والجنون كل الجنون.

قالت وهي تضمه أكثر: وهل سيبقى هذا الألم؟ هل سيتلاشى عندما أطمئن عليك ونتزوج؟ هذا الألم مزعج، يعتصر قلبي طوال الوقت، أنت تعرف كل شيء، أخبرني، هل سيتلاشى؟

لم يجب. ولم يكن يعرف الإجابة. لا هو متأكد من أنها ستطمئن عليه، ولا هو متأكد من أن الألم سيختفي بعد الاطمئنان، فخوفه عليها يؤلمه الآن، في اللحظة التي تسكن ذراعيه ..

أكملت: سأطمئن عليك، أعرف، احكِ لي عن نفسك، عن كل شيء.

ابتعدت بعض الشيء لتسمعه وترى عينيه وهو يحكي، ولكنه شدَّها إليه من جديد، وقال: لا تتحركي من بين ذراعي أبدًا.

ثم بدأ يحكي لها عن نفسه وعائلته وعمله، ولم يتطرق إلى ماضيه معها، ولا رحلته الوحيدة في البحث في خبايا نفسها.

دقَّ الرجل على الباب مرة أخرى وهو يطلب من مؤمن أن يخرج.

قال على مضض: سنخرج الآن.

قام وهي معه، وفتح الباب، ولم يسمع شيئًا مما قال صديقه صاحب الشركة.

هزَّ رأسه، ثم خرج وهو يمسك بيدها، ولم يسمع أصوات السيارات ولا شعر بالزحام .

قالت: سآتي معك إلى الأقصر. نبحث عن الحقيقة، لا بد سنجدها. فأنت تحارب المجهول الآن.

تردد قليلًا، كان يريد أن يشرح لها أنه بكلمات بسيطة ربما ينقذ نفسه إلى حين، وأنه لا يحتاج البحث، ولكنه لم يتكلم.

فقالت: دعني أبحث معك .

* * *

الزاوية الثالثة

توقعت ثورة والدها، وتحملتها في صبر، فلم تعتد أن تناقشه أو تختلف معه. بعد أن بدأ في عد أسباب رفضه لزواجها من مؤمن المقنعة والمنتقاة جلس أمامها إلى الطاولة، ثم نظر إليها، وقال: ولكنك ستتزوجينه شئت أم أبيت، أعرف.

قالت في هدوء: لا أريد أن أغضبك.

-لا يمكنك الزواج منه الآن. تنتظرين حتى تنتهي قضيته، هذا طلبي.

قالت في حماس: أوافق. هو أيضًا يريد الانتظار .

قال في تهكم: أي جنون هذا؟ وأي خطبة، وتريدين العيش معه في الأقصر، في بيته بعد الزواج؟ ابنتي تعيش في الجنوب وحدها بلا عائلة ولا سند، وأهله قاطعوه كما تقولين، أتكلم مع من، وأدعو من إلى حفل خطبتك؟

-هي علاقة غير تقليدية بعض الشيء، وأنا متأكدة من أنني أستطيع أن أصلح بينه وبين أهله بعد زواجنا. سأفعل، أعدك، أعطه فرصة، ألا ترى أنني تحسنت؟ سأكون سعيدة معه. أعرف.

-إلى حين، سعادتك وهم، ومشاعرك جاءت في وقت ضعفك وهزيمتك، استغل ضعفك لا أكثر. ماذا ترين فيه من أخلاق تجعله يصلح زوجًا؟ أبًا لأولادك؟

قالت بعد برهة: لا أعرف كيف أصف قراري، هو شعور بأنه لي، بأنه يفهمني.

-بالطبع لا تعرفين، فالعقل يقول إنه نصاب، ينصب على السائحين، ويفعل أي شيء من أجل المال.

قالت في ثبات: هو ليس بنصاب، هو مرشد سياحي موهوب إلى أبعد حد، صدقني، ناجح في عمله.

-يرشدهم إلى ماذا؟ التاريخ أم الكذب؟

- إلى بعض زوايا الحقيقة.. ربما .

أطال الأب نظره إليها ثم قال: أتعرفين كم أنت غبية؟ لا أعرف كيف أنجبت بنتًا بهذا الغباء! لن أساعدك. لو قررت الزواج منه فلا تتوقعي مني أي شيء.

لكلمات الأب وقع الصفعات دائمًا، منذ الطفولة، أحيانًا تمنت أن يصفعها بقوة ولا ينطق بهذه الكلمات. كانت تتوقع أنه لن يساعدها، وتوقع مؤمن هذا أيضًا. وطلب منها مؤمن أن تحصل على موافقة الأب فقط. فهو لا يحتاج منه شيئًا، وقال مؤمن في حسم إنها هي أيضًا لن تحتاج أي شيء بعد زواجهما.

قالت: أعرف. لا نحتاج إلى أي شيء. كما قلت سنسكن معًا في الأقصر، وعنده شقته، ولا أريد حفل زفاف. سنتزوج فور انتهاء مشكلته، بدون أي تعقيدات، وبدون أي انتظار. لن نحتاج أي مال. أشكرك يا أبي. لا تقلق عليَّ، مؤمن كريم معي إلى أقصى حد. أريد موافقتك فقط.

قال الأب: كالعادة لا تفهمين شيئًا، تتكلمين كالمراهقة، وتتصرفين كالأطفال، سيطر عليك تمامًا ليصل إلى مراده. ولكنني أثق في أن العدالة ستسود، وأنه سينتهي في السجن. أعطي نفسك فرصة حتى تعرفي حقيقته، نصاب وكاذب ويسرق أي شيء، أنت، يسرقك أنت، يسرق أيامك وحياتك، ولكنك لن تقتنعي، لا بأس، إذا أردت الذهاب إلى الأقصر فسآتي
معك.

-وعملك؟

- لن أتركك معه مرة أخرى. هذا لن يحدث.

قالت في هدوء: أشكرك، على تفهمك .

ردُّ فعل أصدقاء مؤمن كان أكثر عنفًا وأكثر فزعًا، صاح فيه سمير: فقدت عقلك، ستعدم وتتزوج؟ إذن مصيرك حتمًا الموت، إمَّا إعدامًا وإمَّا زواجًا. أيُّ مجنون يفكر هكذا؟ لديك جوانا أجمل امرأة في العالم أو غيرها، لماذا تتزوج؟ وعندما

تتزوج تصبح رجلًا لا نعرفه. رجلًا مملًّا ومستقيمًا، وربما تعمل معك هنا، من يدري؟ تصور زوجتك تعمل معك، أيُّ جحيم
هذا؟ عهدتك تجازف بعمرك، ولكن ليس لهذا الحد. بعض العقل مفيد في هذه الحالات.

لم يجب، قال محمود وهو يحاول إقناعه: تطمع في أموال أبيها؟ تظن أنك ستطول منها أي شيء؟ هو ليس ساذجًا.

لم يكن يستطيع مصارحة أصدقائه بالحقيقة، فالحقيقة مخزية بالنسبة إليهم، أنَّ مؤمن يحب في عالمهم تعني أنه خرج عن نطاق الرجولة والجدعنة، وأصبح خرقة في يد امرأة تنظف بها المراحيض، لا بد من الصمت في هذه اللحظات.

قال سمير في تأكيد: هي أزمتك أثَّرت على عقلك، ستنتهي، وتبقى حبيسًا بين جدران امرأة واحدة إلى الأبد. وليتها أي امرأة. تظنها ستسمح لك بخيانتها؟ ألا ترى عينيها القويتين؟ هذه تخصيك لو خنتها.

ابتسم، وودَّ لو قال إنه لا يستطيع خيانتها، إن الحقيقة لا يمكن تصديقها، ولن تستوعبها عقولهم وقلوبهم، ولكنه لم ينطق.

قال محمود في توعد: أنا أعرفك أكثر من الجميع، ها هو ذقني، قبل نهاية هذا العام ستتعامل مع الأفواج المصرية، وتستقيم، وتنجب، وستصفيك جسديًّا وماديًّا. كل ما ادخرته ستصرفه عليها، ملابسها وطعامها وزينتها، هي ليست كنسائنا، وستندم على قراراتك المتسرعة، هذا إذا نجوت، الثورات تقام باسم يان يا صديقي، أصبحت هي شغل كل العالم، وأنت قاتل أو مقتول في هذه الحالة.

ساد الصمت، قال سمير في صوت خافت: ماذا تريد مني.

نظر إليه مؤمن، ثم همس في أذنه: مصلحتنا معًا.

فقال سمير وهو يعتدل في جلسته: ولكن عدني أن أول فوج مصري سيكون أولادي، أنت أفضل مرشد في الأقصر، آن لهم معرفة بلادهم .

-لا أفضل الأفواج المصرية، وخاصة الأطفال المصريين، يتعاملون مع الآثار كأنها لعبة جاء بها عم قميء .

- إلا أطفالي.

-ولكنني سأعدك عندما تنكشف هذه الغمة، وإذا قررت أن أستمر في عملي، فأول فوج سيكون توأمك .

-نبدأ في الكلام، ماذا تريد؟ وكم من المال معك؟

* * *

مقتل يان كان خرابًا لجوانا، فلا العمل موجود ولا المال. والسائحون المصريون يأتون أفواجًا قليلة في أوقات معينة من السنة، وتورط مؤمن أحزنها أيضًا، فهو صديقها الوحيد، الوحيد الذي لا يطمع في جسدها ولا يضغط عليها. يتبادلان المتعة في تقدير وتفهم، وهذا يعجبها، خطوبته لم تقلقها، ولم تؤثر فيها، وعندما جاء لزيارتها اليوم، كانت متأكدة من أنه لا يزال يريدها، وأنه صديقها المقرب، ولكن عندما رأت عينيه بدا واجمًا وجادًّا، اعتقدت أنها أزمته ربما أثرت فيه، وجعلته ينصرف عن كل النساء. فإذا انصرف عنها هي والجمال يقاس بجسدها فلا بد أنه انصرف عن كل النساء، فقد اعتادت نظرات الاشتهاء من كل رجل قابلته. جاء يتكلم معها عن يان، لا تعرف عنها الكثير. بدت لها حزينة ومهمومة طوال الوقت، وزوجها كان يرمق جوانا بنظرات اشتهاء تعرفها وتعتادها، لم تشعر جوانا بأن يان صينية قط، بدا لها أن يان بملامح صينية، ولكنها تتصرف كأستراليَّة. كانت جوانا تميِّز جيِّدًا بين البلاد والعباد؛ فقد قابلت منهم الكثير، بدأت تحكي له عن خطيبها، ورغبته في المال، وعدم تفهمه أنهم هنا في أزمة ومشكلة. سألت مؤمن عن حاله، وعرضت المساعدة، قالت إنها تريد السفر إلى القاهرة، وتخاف من الرجال. الرجال يخيفونها في كل الأركان، ولو ذهبت إلى القاهرة لا بد ستتصيدها شبكة مشبوهة وتستغلها. حدث ذلك في موسكو من قبل، ولذا هربت إلى مصر. عندما تذهب إلى القاهرة لا بد أن تكون في حماية الرجال، الكثير منهم، تفكر في الأمر، وتتفاوض مع أكثر من ملهى ليلي في القاهرة. المنافسة في القاهرة
صعبة، والراقصات لديهن نفوذ كالساسة، ولو أرادت راقصة التخلص منها تطردها إلى أي بلد في لحظة، أو تضربها علقة تكسر ظهرها وتعوقها عن الرقص إلى الأبد. لا بد من توخي الحذر في السفر إلى القاهرة. القاهرة عالم كبير لا قوانين تحكم النفوذ، ولا نظام لأي نجاح أو فشل. كل شيء عشوائي سواء النجاح الساحق أو الفشل الذريع، لا تفهمها، ولم تكن مستعدة لها. وما يغضبها حقًّا هو تلك النزعة الوطنية الجديدة في مصر، كل الراقصات المصريات غاضبات من الراقصات الأجنبيات يرددن أن الرقص صناعة مصرية من أيام الفراعنة، ولا يمكن للأجنبية إتقان الرقص المصري، وكأن كل مشاكلهن انحسرت في رقص جوانا المسكينة، يستوردون الأسلحة من فرنسا والسيارات من ألمانيا، وتلتهب النزعة الوطنية مع الراقصة الروسية، وكأن الكل يريد تأميمها لتصبح شركة مساهمة مصرية. لماذا كل هذا التعصب الذي لم تعهده

من مصر والمصريين؟ لا بد أنه مقتل يان. يغيِّر البشر، والضغط على مصر لمعرفة الفاعل، بالطبع الفاعل ليس الحكومة، ولا أصحاب النفوذ في مصر، هكذا قالت جوانا، لا يفعلها إلا رجل. هم سبب كل المآسي، قتلها زوجها. جاء بها إلى مصر لا لشيء
إلَّا ليقتلها.

عندما طلبها خطيبها قالت لمؤمن في غضب: لا أريد أن أتكلم معه، قل له إنني لست هنا، ولن أبعث أي مال.

أمسك بالتليفون. سمع صوت الخطيب، قال له بالإنجليزية ما أرادت، ثم قطع الخط. وترك مؤمن في بعض الحيرة والالتباس، صوته، صوت الخطيب يبدو مختلفًا هذه المرة، وكأنه صوت شخص آخر، لا بأس هذه ليست قضيته.

اتجه إلى الباب، ثم تراجع، وقال فجأة: جوانا. تحبين خطيبك؟

- أحتاجه، أنت تعرف.

- جوانا، يبدو لي أنك لا تملكين أي خطيب.

نظرت إليه في فزع دقائق، ثم قالت: لماذا تقول هذا؟

-أعرفك. نحن صديقان منذ زمن، كل هؤلاء الرجال في حياتك. كل من يريدك وكل من يستغلك، وخطيبك؟ يحميك من ماذا؟ ما حكايتك؟

قالت في عدوانية: تغيَّرتَ بعد خطبتك. تشك في أصحابك. أنا أحكي لك عن حظي التعس وأنت تشك في؟ ماذا أفعل؟

اتجه إلى الباب، فقالت مسرعة: مؤمن.

- نعم.

-كنت مخطوبة وتركته.

-يخيل إلى أنك لم تكوني مخطوبة قط، هل تستأجرين الرجال في روسيا ليطلبوكِ على أنهم خطباؤك؟ حتى لو أنَّ هذا صحيح فلا يهم، فقط أريد أن أفهم، أحترمك يا صديقتي في كل الأحوال.

صمتت لحظات ثم قالت: أحيانًا .

-ماذا تعني أحيانًا؟ هل كان لك خطيب يومًا؟

-لا، ولكنك تفهم كوني امرأة وحيدة هنا أحتاج إلى أن أقول إنني مرتبطة حتى لا يطمع الرجال فيَّ.

-يطمعون فيك في كلتا الحالتين: إذا كنت مرتبطة أو غير مرتبطة، تحتاجين إلى الخطيب النذل. لماذا؟ يؤنس وحدتك هنا؟ يبدو لي أنك تحتاجين القصة لنفسك يا جوانا وليس للآخرين.

-تظنني مجنونة؟

-كلنا مجانين، وأنت العاقلة الوحيدة.

بقيت حقائق جوانا كالقطع الخشبية الصغيرة في يد طفل صغير. يحاول جمعها لتصبح على شكل بيت أو شجرة وتستعصي على الجمع، فكلها خضراء أو زرقاء أو صفراء، كذبت كالجميع، هذا لا يعنيه. كذب هو كثيرًا. ولكن علاقتها بالرجال تبقى علاقة من نوع خاص، تخافهم وتكرههم، وتفكر فيهم طوال الوقت، وتريدهم أو تريد الكثير منهم، ووحدتها لا يشفيها رجال ولا وطن، فهي كامنة في الأعماق، الحقيقة الواحدة، ظن أنها وحدة طفل مقهور أو امرأة مغتصبة أو الاثنان معًا. فلا الطفل يجرؤ على المقاومة، ولا المرأة تجرؤ على البوح، لم يزل متأكدًا من أنها اغتصبت مرارًا، وأنها لم تقو على النطق في بلاد بعيدة وعوالم مختلفة .

قالت : مؤمن، أرجو أن يبقى هذا السر بيننا.

هزَّ رأسه بالإيجاب.

نظرت إليه، ثم قالت في دلال: لم تعد تشتاق إليَّ حقًّا؟

قال: لا أستطيع. تذبحني لو اشتقت لغيرها.

تمدَّدت على سريرها، وقالت في سخرية: مسكينة علياء، تثق في الرجال، ستشتاق لي ولو بعد حين، الرجل بطبعه خائن، والطباع لا يمكن التغلب عليها، الكذب والخيانة من طباع الرجال. أخبرهم أن زوج يان قتلها. أشهد معك لو أرادوا. من يقتل لا بد أن يكون رجلًا.

قال وهو يتجه إلى الباب: أشكرك على كل شيء.

-وستأتي من جديد؟

-لا أعتقد هذا.

تمتمت عندما خرج: مؤمن مجنون، أعرف هذا منذ أخبرني بقصته الغريبة، يريد أن يتزوج من امرأة ويعاشر أخرى ويحب ثالثة، تقسيماته تدل على أنه مجنون، فلو قال أتزوج من امرأة وأحب وأعاشر ثانية كنت أفهم، ولكن أن يقسِّم نفسه إلى ثلاثة أقسام، هذا هو كل الجنون. كلنا نقسِّم أنفسنا إلى قسمين، ولكن ثلاثة أقسام، فهذا هو الجنون بعينه، مسكين.

* * *

سوزان زوجة محمود تكلمت مرة أو مرتين مع يان، والغريب أن يان سألتها عن الموت، ومراسم الدفن في مصر، وحينئذ قالت يان في تلقائية إنها تريد أن تدفن في الصين، وأنها لم تزل بوذية، ولم تزل تتأمل العالم بكل قسوته. بعد موت يان جاء لسوزان تليفون لم تتوقعه. اتصل بها ابنها، وقال إنه قلق على بقائها في مصر بعد هذا الحادث. بعد الصمت لحظات أخبرته أنها لا تملك ما تعود إليه، فقال في غضب: «لديك ابنك وحفيدك ما المشكلة في أن تأتي لزيارتنا بميعاد وتبيتي في الفندق؟ إما أن تأخذي من حقوق الآخرين وخصوصيتهم أو تغضبي ولا تتكلمي معنا» ولامها على أنها تنفق أموالها على هذا الشاب الذي يستغلها، ويمتص كل ما يستحقه هو وابنه. أموال أبيه وأموالها. كانت مكالمة أزعجتها إلى أبعد حد.

وموت يان التي تصغرها ذكرها بنهاية، هي كل الحقائق، فتركت العنان لمحمود ينسيها كل هذا الهم، وقررت أن تذهب معه في رحلة إلى اليونان. سيأخذان الفيزا ويسافران معًا عدة أيام. عندما سألها مؤمن عن رأيها، قالت وهي تلتفت حولها: حكومتك فعلت هذا. يان كانت مثالية وتهتم بحقوق الفقراء في مصر. خرجت مرات ومرات مع محمود أو غيره، كنت أراها تجلس مع أطفال الشوارع، وتحثهم على الثورة، ويبتسمون لها، ويطلبون المال والطعام. كانت تقول باستمرار: كل هذه الآثار لكم. كل المجد لكم وتستجدون الطعام؟ لا بد أن هناك من يسرقكم. قالت الكلمات غير المباحة، تكلمت عن سرقة الحق واغتصاب الوطن وحقوق الفقراء، وأنت تعرف أنَّ من يتكلم عن هذا في مصر يختفي من فوق الأرض لفترة، أو
حتى ليوم القيامة، هو وحظه. ما رأيك أنت يا مؤمن؟ في بلادنا الفقير إنسان وله حقوق. لو تأتي إلى بلادنا ستجد أنها هي الجنة في الحقوق .

قال مؤمن: ولكنك تعيشين هنا؟ لماذا؟

- هذا موضوع يطول شرحه، الحب يفعل المعجزات.

ردد: يفعل المعجزات.

* * *

كانت علياء تسير وسط البيوت والحدائق في البر الغربي وهي تبحث عن بيت إيريكا. القلق على مؤمن يهز قلبها، لا تدري ما سيحدث له، وموافقة والدها على زواجها من مؤمن أعطاها إحساسًا بأنَّه ربما يتوقع نهايته في أقرب وقت. حاولت أن تزيح القلق بعيدًا عن حنايا القلب لتستمر. وقد عاهدت قلبها على أنها ستتزوجه يوم انتهاء القضية كما اتفقا، لا تحتاج
غيره ولا يهمها زفافًا أو مدعوين، ستتزوجه وقد أقسمت أنها بعد زواجهما ستمكث بين ذراعيه أسابيع حتى يهدأ الألم والخوف، وتستقر الروح وتقوى على الاستمرار.

إيريكا لا بد أن لها يدًا في كل هذا؛ فهي الجاسوسة، وهي التي تسأل كل الأسئلة، وتعرف كل الإجابات. سارت علياء بين بيوت البر الغربي، بدت البيوت خارج هذا العالم منسقة ومحاطة بالأزهار. يبنيها الباحثون دومًا عن العالم الافتراضي كقصور الواهمين والحالمين، أسوارها من الطوب الأحمر والأبيض وفضاؤها يمتد للعالم. دائمًا هناك فناء يذكرهم بأن

للخيال كل الذنب في رحلة الهرب وأن للمساحات الخاوية حلاوة في النفس المثقلة بالآلام، من يقطنها ومن يحكي عنها ومن يرشد أصحابها إلى خبايا النفس والضمير. المريدون الهاربون من بلاد مختلفة والباحثون والسائرون في الطرق الكثيرة، مساحات تستقر في منتصف القلوب داخل رحلة البحث واليأس. كالأحلام والضمائر البريئة.

الرحالة في البر الغربي أنواع وأشكال، وكلهم طالبو معرفة وخلاص، البر الغربي مختلف عن البر الشرقي؛ فالمقابر الباقية بألوانها الحية دومًا تعطي له رائحة مختلفة. ومريدو المقابر والقصور كلهم تائهون مصريين كانوا أو أجانب، بعضهم باحث عن سكينة، وبعضهم باحث عن كنز دفين، والآخرون يبحثون عن السعادة وتحقيق المستحيل .

وجدت البيت أخيرًا، بدا بيتًا صغيرًا، ألوانه رقيقة ومدخله خشبي، مكتوب على الباب اسم إيريكا باللغة الإنجليزية، دقت الباب وهي تتوقع أن إيريكا ربما لا تفتح، وربما لا تخبرها بشيء. محاولة منها يائسة لمعرفة حقيقة مقتل يان، وربما تريد رؤية غرفة إيريكا التي لم تطأها قدم مصري حتى الآن .

دقت من جديد في قوة ونفاد صبر ، فتحت إيريكا. نظرت إليها مترددة، ثم دعتها للدخول. بدأت في الكلام المستمر عن مؤمن، وما حدث له، ومصير يان المؤلم، وهذه الجريمة غير المتوقعة، ثم نظرت إلى علياء وقالت: لم أكن أعرف أنك على علاقة بمؤمن ؟

بدأت إيريكا تسأل أسئلتها الفضولية الكثيرة. هل وافق والدك ؟ هل تظنين الحكومة متورطة في مقتل يان ؟ من عذبها ؟ ولِمَ يعذبها قبل القتل ؟ من يريد أن يلقنها درسًا وهي ميتة لا محالة وكأنها رمز لكل الخير ؟

استمعت إليها علياء في صبر ، ثم قالت: إيريكا ؟ اسمحي لي ماذا تعملين هنا ؟

قالت باقتضاب: أعيش هنا.

-أعرف، ونرحب بك معنا، ولكن ما عملك ؟

-تعرفين يا علياء، أنا متقاعدة منذ زمن.

- ماذا كنت تعملين قبل التقاعد ؟

ساد الصمت. ثم قالت: مدرسة.

قامت علياء وهي تنظر حولها، بدا البيت منظَّمًا ونظيفًا، قالت: هل نشرب شايًا ؟ جئت لك ببعض البسكويت، سيعجبك.

قامت إيريكا لصنع الشاي في حماس، نظرت علياء حولها، عيناها على الحجرة المغلقة، اتجهت إلى الحجرة في جرأة، وفتحتها وهي تقول: أبحث عن الحمام...

خرجت إيريكا من المطبخ وفي يدها الإبريق، ونظرت لباب حجرتها المفتوح في فزع وعلياء تنظر داخل الغرفة.

قالت علياء مسرعة: هذه حجرتك يا إيريكا ؟

قالت إيريكا في عدم ارتياح: نعم. لنجلس في الخارج أفضل.

أدارت علياء عينيها حول الحجرة، حاولت أن ترى محتوياتها لتحفظها في الذاكرة، وصدمها ما رأت، فتحت فمها وقالت: ما كل هذه الأوراق ؟!

بدا الإحراج على إيريكا، وكأن علياء قد اكتشفتها للتو مع زوج يان في غرفة النوم، كانت غرفتها أغرب من الخيال، بها آلاف الأوراق المتناثرة في كل مكان، معظمها مكتوب. أوراق فيلوسكاب ممتلئة بحبر أسود وكلمات صغيرة وكثيفة. أوراق تغطي كل شيء، السرير، المقعد، المكتب، الدولاب الصغير وحتى الأرض.

رددت : إيريكا، ما كل هذه الأوراق ؟

سمعت صوت إيريكا المتحشرج ولم تفهم ما قالت، فسألت مرة أخرى: ما كل هذه الأوراق ؟

قالت إيريكا وهي تهوي إلى المقعد: روايتي.

- ماذا؟

-روايتي. أحاول كتابتها منذ أعوام. أبعث ببعض أفكاري لإحدى ممثِّلي دار النشر؛ فهي صديقة قديمة تدعى نورما، لا تريد قراءة كل التفاصيل، لا تحب التفاصيل. ألخص لها أفكاري، وقبل أن ألخصها أكتبها.

قالت علياء وهي تأخذ منها الإبريق: كل هذه الأوراق أفكارك؟

-كلها نعم.

- ألا يمكن تلخيصها؟ هذه ملحمة الآن؟

ساد الصمت. ثم قالت إيريكا في تردد: هل تعتقدين أن من الأفضل أن ألخصها؟ المشكلة يا علياء هي كما تقول نورما إنني أعشق التفاصيل وأفنى بداخلها. مثلًا تهمني الألوان التي ترتدينها لا بد أن أكتب عن تسريحة شعرك ولون حذائك، وأعد كلماتك وحركاتك، فالكاتب لا بد أن يكون قوي الملاحظة. لا أدري، أحاول.

هزَّت علياء رأسها بالإيجاب. لم تكن تعرف هل تصدق إيريكا أم لا. إمَّا أن إيريكا جاسوسة محترفة تدَّعي السذاجة، وإمَّا أنها حقًّا أفنت عمرها وحيدة تبحث عن أدق التفاصيل. هذا الرجل فمه كبير، وهذا يمسح يده في أنفه كلما شعر بالإحراج، وهذا وهذا. لم يعجبها أي رجل، ولم تخرج من غرفتها المصطخبة بالأوراق .

قالت علياء وهي تحاول أن تبتسم: عَمَّ تكتبين؟ احكي لي عن قصتك؟

قالت إيريكا: أحاول أن أكتب عن مؤمن. ألا تعتقدين أنه شخصية تستحق الكتابة عنها.

قالت في دهشة: مؤمن؟ لماذا؟

- لا أعرف، هو مختلف، وربما لم أقابل وأعرف أي مصري آخر. أتعتقدين أنني أحتاج مقابلة الكثير من المصريين أولًا؟ هل مؤمن مصري أصيل؟

-ولماذا تريدين الكتابة عن المصريين؟

- أحب الأقصر، وأريد البقاء هنا، ونورما تعتقد أنها فكرة رائعة.

رددت علياء: اعذريني، لم أقصد إزعاجك .

كتبت إيريكا رسالتها لنورما:

العزيزة نورما

تبلورت فكرة الرواية والنهاية والبداية. ما رأيك؟

فردت نورما: إيريكا، فكرتك لا تعجبني. من يهتم بأمر المرشد السياحي؟ هل هو إرهابي؟ يسكن الجبال ويتلاعب بعقول الشباب؟ خطر على بلادنا الحرة؟ هل هو مناضل ضد ظلم بلاده؟ سجين؟ نتعاطف معه؟ لا. انسي الفكرة. وفكري في شيء آخر. بدأ صبري ينفد، أنتظر روايتك منذ أعوام.

كتبت إيريكا :

نورما، أعطيني بعض الوقت، سأفكر في رواية مختلفة.

توقف التواصل بين نورما وإيريكا بعدها، فلم تعد نورما تجيب عن رسائل إيريكا، ولم تزل إيريكا في الأقصر تبحث.

* * *

الزاوية الرابعة والأخيرة

يوم الإثنين كان موت مؤمن المحقق، وكان مؤمن يعرف ويفكر، فالعالم لا يجتمع إلا على المصائب والغنائم، والضحايا دائمًا ثمن بخس لانتصارات الفضيلة والعدالة. أمير عابدين كان قد قرر أنَّه لابدَّ من تصفية مؤمن اليوم، فأثمه ليس بعده إثم. أن يرد له الضربة ذنبًا وخطيئة، ولكن أن يرد له الضربة أمام سائقه بعد أن كبل حارسه، وأن يكسر ذراعه، فهذا لا يضاهيه إلا الموت. مؤمن ليس أول ولا آخر من يقتل برصاصة لص وهو خارج صباحًا إلى عمله، ولا يتوقع الكثير في حياته على كل حال. كل الشعوب تنتظر مقتله ليضيف لقصة يان بعض الألوان ومكسبات الطعم.

وإذا أفلت مؤمن من رصاصة أمير المخضبة بالحقد، فكيف يفلت من رصاصة الضابط العالم بخبايا كل الأمور والذي قرأ الجريمة وعرف مرتكبيها. من امتد نظره إلى ما بعد الأفق والعالم أجمعين، رصاصة الضابط تحل كل المشكلات، مات من قتل يان ليستريح العالم، وتخمد نار التساؤلات المخزية، فالحكومات كالآباء لا تحب الأسئلة الكثيرة، وخاصة الأسئلة التي ليس لها أجوبة واضحة. في عصرنا الكل يملك زمام الحقيقة، والحقائق كثيرة ومتعددة تعدد أنواع الفطائر ونكهات الطعام. الضابط يريد أن يغلق القضية وينقذ وطنه من كل الأسئلة، وأن ينام أولاده في هدوء مطمئنين أن والدهم لا يزال يعمل، ولا يزال يقبض على كل مجرم ومدمر وإرهابي، مؤمن مقتول اليوم لا محالة، وكان يعرف هذا؛ فأصدقاء مؤمن في كل مكان، في الأقصر صلة دم وعشرة عمر، ولا بأس من بعض الهدايا والخدمات. كان محبوبًا من كل من يعمل معه، وكل من يحب الحكومة، وكل من يكره الحكومة. مؤمن وحد البلاد على حبه، فقد كان يرفق بسائقي الأتوبيسات، وعساكر المتاحف، وموظفي المحافظة، وأصحاب عربيات الحنطور، وحاملي البضائع، وكل رجال المطارات والشركات السياحية. جاءه الخبر اليوم. مقتله في منتصف النهار ليكون عبرة لكل شخص يجرؤ على انتزاع حقه، وكل مجرم يريد الإفلات من العدالة، رصاصة في المخ تقتل سريعًا، وفي القتل عدة فوائد، أولها حكي القصص وتأليف الحقائق، فالموت حق، والميت لا يستطيع الاعتراض.

لم يخف مؤمن من الموت قط، رآه أمامه كثيرًا، وشعر به واستساغه. كان رفيقًا وعشرة عمر منذ الصغر. مات الأب والعم وابن العم والصديق والكثيرون، وفي وسط الفرح كان تذكر الأموات والكلام معهم وتأليف التاريخ وإعادة حكيه. بعد أن ارتدى ملابسه اتجه إلى الباب ومعه هاتفه، وهو يعرف أين يذهب وأين يلجأ .

كمال المنسي، وسط كل الأحداث كان يحتاج إلى أن يسافر إلى بلد آسيوي في عالمه الافتراضي، فطلب من مؤمن مرافقته. واختار مؤمن هذا اليوم الذي كتب عليه القتل، وأبلغه به الأصدقاء، فشهادة الوفاة مختومة، وجاهزة. اختار هذا

اليوم ليذهب إلى المطار ليستقبل كمال المنسي. خطط لهذا اليوم منذ أسابيع. ببعض الحظ سينتهي بسلام، ولكن لا بأس من الحرص ووداع الأحبة؛ فالموت يبقى سفرًا بلا رجعة .

طلب رقم أمه، أجابت على الفور بصوت ملهوف، سألته إذا كان بخير، أجاب بأنه بخير. سألها عن أخيه وأخته، ساد الصمت الواجم ثم همست: أفتقدك يا بني .

قال بعد برهة: سوف تريني قريبًا وترين زوجتي، سأتزوج أجمل امرأة، ستحبينها. بعثتُ لك بعض المال مع محمود، إذا احتجت أي شيء أخبريني أو أخبريه.

قالت في فزع: ولِمَ أخبره؟ أين ستذهب؟

- أنا معك، لن أذهب إلى أي مكان، لا تقلقي.

أغلق الخط والغيوم تسيطر عليه .

وصلت طائرة كمال، طلب رقم علياء، سمع صوتها، قالت في لهفة إنها لم تره منذ يومين فلماذا؟ أخبرها أنه في المطار يستقبل كمال المنسي. صمت وهو يريد أن يسمع صوتها، فقالت اسمه وسألته ماذا به. قال إنه بخير، همست في تلقائية: صوتك يقلقني. أعرفك .

قال: لا شيء يدعو للقلق، سأنتهي من عملي اليوم وأراك غدًا. أعدك.

-افتقدتك حتى بعد يومين. أحبك.

ابتسم، أخذ نفسًا طويلًا، ثم قال: وصلت الطائرة، سأتصل بك لاحقًا. علياء..هذه أجمل كلمة سمعتها طوال عمري.

أغلق الخط، بقي ساكنًا لحظات .

صافحه كمال في حرارة، وقال في حماس: لا أصدق أنهم لم يجدوا من قتل يان؟ كيف؟

ردد في ملل: ومن قتل يان؟

-إرهابيون بالطبع، ماذا تظن؟ من يمكنه فعل هذا سوى الإرهابيين، يريدون قتل كل ما هو جميل: الحب والخير والحريات .

بدا مؤمن صامتًا واجمًا، قال كمال في حماس: أين نذهب في هذه الرحلة؟

سكت مؤمن، ثم قال: ما رأيك أن آخذك إلى مصر؟ تغيير فقط؟ فأنت تسافر إلى كل البلاد ما عدا مصر. تعال معي أحك لك عن هذا البلد.

-أعرف كل شيء عنه، لا أريد المزيد.

قال مؤمن في اقتضاب: اليوم ميعاد قتلي، فأريد أن أبقى هنا بين زوايا المطار الآمن. تبقى معي؟

قال كمال: أبقى معك، فلا مرشد غيرك يعمل معي، نجلس هنا ونتكلم. من يريد قتلك؟

قال مؤمن في هدوء: لماذا لا تسأل من لا يريد قتلي؟

ساد الصمت لحظات، ثم قال كمال: ألم تفكر في الهرب خارج مصر؟

رفع كتفيه في لا مبالاة: لم تخطر لي فكرة الهرب، لا أستسيغه.

- علياء تعرف أنك ستقتل اليوم؟ البوليس يعرف؟

قال مؤمن: علياء لا تعرف.

- علياء رائعة، كيف أقنعتها بالزواج منك؟

لم يجب، فأكمل كمال: قلت لي إنك ستأخذني في جولة إلى مصر.

-نعم، ولكنني لا أحتاج إلى أن أشرح لك أي شيء، مصر ستنكشف لك اليوم أو غدًا. هي النجاة والموت، تفهمني؟

هزَّ كمال رأسه، وقال: أفهمك، ولكنك لا تتكلم،. ألن تحكي لي عن أي شيء؟

قال مؤمن: أحكي لك عن مصر ....

استمر مؤمن في الحكي حتى الساعة الخامسة، ثم قرر أن يغادر المطار مع كمال. لم يبال كمال بالسير بجانب مؤمن، وكأنه ينتظر الرصاصة الضالة ويتمناها. لم تأت. وصلا إلى المركب، صافح مؤمن رجلًا أمام المركب، وأخذ منه ورقة، وقال: أخبر الضابط أنني سآتي اليوم، ليلًا.

هزَّ الرجل رأسه بالإيجاب، ثم اختفى. عند دخول كمال المركب استقبلته جوانا بالترحاب، وكانت تجهز حقيبتها، وبجانبها محمود يبتسم في فخر. نظر إليها مؤمن وهو لا يفهم ماذا حدث بينهما، قالت جوانا في حماس: مؤمن، لن تصدق. جاءني العرض الذي أحلم به طوال عمري، سأذهب لأعمل في القاهرة، كان حلم حياتي، أن أصبح أشهر راقصة في مصر.

نظر إلى محمود، فقال مسرعًا: أنا وجوانا تمت خطبتنا اليوم، مفاجأة، اعذرنا؟

أمسك مؤمن بيده، وهمس في أذنه: فقدت عقلك؟ وزوجتيك؟

قال في قرف: يتحرقوا الاثنتين!

فقال: وخطيب جوانا في روسيا؟

فقال محمود: تركته.

-ماذا تنوي؟

فقال محمود مسرعًا: أن أعيش يا أخي، ثم أكمل: اتفقنا على أنني سأبقى هنا، ستتصل بي إذا احتاجت أي شيء، تريد رجلًا يحميها في القاهرة، فذئاب القاهرة ستنهش جمالها لو لم أحمها، وتحتاج من يتقن العربية ويقرأ العقود، تحتاج من تثق به، سنتزوج قبل أن تنتهي فترة إقامتها .

قال مؤمن وقد نسى أزمته أمام حماقة صديقه: وسوزان؟

-كيف لها أن تعرف؟

-وهذا الزواج صوري إذن؟

همس له: الآن نعم، إلى أن تحبني، ثم تصبح لي وحدي.

قال مؤمن في يقين: محمود، جوانا لا يملكها رجل أبدًا. تكرههم كلهم.

-ما عدا أنا.

قال في اقتضاب: مبروك، ماذا أقول؟ أتمنى لكما التوفيق .

عندما سار مؤمن ليلًا في اتجاه القسم كان يشعر بالخطى وراءه تتبعه كأعماله وأخطائه. اعتادها ولم يبال بها. شوارع الأقصر ليلًا كانت هادئة، التقت عيناه بعيني رجل ينتظر بالحنطور في صبر، لعل أحد السائحين يقرر الخروج ليلًا. رفع مؤمن كفه وأشار له، فتمتم الرجل بالسلام. ثم قال: حاول ألا تموت اليوم.

ابتسم، توقف أمامه لحظات، وأدار وجهه، فاختفت الخطى. وجه الرجل مغطى بشعر رأسه وذقنه وعمامته، لم يتبق منه سوى العينين المحاطتين بهالات الزمن وخطوط الصدمات، كان الرجل يدخن سيجارته في شراهة، وكأنها آخر سيجارة سيدخنها، وعند انتهاء السيجارة رماها في غيظ، وتمتم بعض الشتائم .

استمر مؤمن ينظر إليه لحظات، ثم اتجهت عيناه إلى النهر، ولو مات الآن ماذا سيفتقد؟ هي لحظات السعادة والاكتمال يريد أن يبقى عليها في ذاكرته حتى بعد الموت، وينسى كل الأطماع والضعف والشرور. انحنى أمام النهر، وغسل وجهه، هذه الرحلات لا بد من القيام بها، وبعض الرحلات لا بد من السير فيها وحيدًا، لا تنفع شفاعة الأصدقاء ولا جمال النساء. رحلات الظلام الصامتة تملؤها الحقائق ويغمرها السلام. ولكل رجل حلم بموت محقق، بعضهم يريد أن يموت بين ذراعي زوجة أو حبيبة، وبعضهم يريد الموت وهو نائم في مخدعه، حوله الأحبة والأبناء، وبعضهم يريد الموت فجأة بلا مقدمات ولا ترتيبات. ومؤمن يريد الانصهار داخل أعماق النهر، ليفهم حقيقته، ويعرف كيف ينبض الحب في القلوب، وكيف تتوهج الغيرة والحقد، ومن سيطر على ضعفه، ومن ترك العنان للنفس تعبث به كيفما تشاء.

اتسخت المياه بمخلفات السفن، تحمل النهر، وانحنى، ولكنه لم يتوقف عن السير. في رحلات الوحدة رونق ومعرفة، وكلما اقترب من المعرفة زاغ البصر وترددت الحواس، وكان هو مجرد حزمة من الذكريات لا يدري أيُّها أكثر صدقًا. كان الطفل المنطوي الخجول لا يبالي باللعب مع الغرباء، ولا أصحاب الأديان المختلفة، يبحث إلى أبد الآبدين عن حقيقة النهر، والشر الكامن في باطن الصحراء. وكان المراهق الذي أحب أميرة الأميرات في يأس وعجز، فلا هيئته هيئة أمير ولا لونه لون الأمراء، وكان العالم بكل شيء، سارد الحكايات، وموجه السفن والمطارات، يفتح ذراعيه للعالم ويحاول الفهم، يحكي قصته في يقين، وتختلط عليه كل الأمور. للوحدة شموخها اليوم، لا بد أن الراحة هى الملاذ للكثيرين، وموته راحة لأقرب الناس، الأخ والسند. سكب الماء على وجهه من جديد، مؤلمة هذه الأيام التي تخترق حقائق لا بد أن تبقى في الأعماق، وألم قسوة أصحاب الرحم يفوق كل الآلام، موته راحة لأصحاب المصائر وأصحاب كل الحقائق، موته راحة للكثيرين، ويطفيء نار الغل في قلوب الغرباء وأقرب الأقارب. ويقضي على حبيبته قضاءً تامًّا، علياء.

علياء... تلعب بنا الذاكرة وتقامر بمصائرنا. يوم مقتل يان، عندما دسّت رأسها داخل أعماقه ونامت في اطمئنان، تجلّت الراحة، واختفى اللهث وراء المستحيل. كانت تحتاج إلى حنانه، وكان يحتاج إلى أن يغمرها بحنان كتمه عمرًا بأكمله في انتظار هذه اللحظة وهذا الاستسلام. وبين ذراعيه عاشت ونامت وبينما شوقه يصارعه ويحرقه، طغى الحنان على كل المشاعر. علياء... كلما ارتعدت أثناء نومها، كان جسده يحميها ويغمرها. يحتاج إلى أن يشعر بها نائمة في أمان بين أحضانه وداخل صدره. ستنسلخ من بين ذراعيه بعد الموت. وسيترعرع الحرمان بداخلها. كان يحتاج أن يجد الفرصة ليأخذها بين ذراعيه مرة ويشرح لها. يحتاج إلى أن يشعر بجسدها داخل روحه مرة ربما، ويسمع أنفاسها المستقرة ويشعر بذراعيها حول صدره مرة ربما. طغت عليه بضعفها وقوتها ونفسها الهشة التي تصارع وحدها كل القبح والشر، طغت عليه وأضعفته بشوقها وصدقها، وبكل هذا الوفاء داخل روحها البريئة. للرحلات مفاجآت وصدمات. وفي بلوغ المراد مرارة من نوع خاص. فالعُمر قصير ربما، والتوق مؤلم، واللهفة لا تخمد طوال الطريق، والطريق لا يمهل سالكه وقتًا ليقف ويرتاح.

كثيرًا ما ينتهي الطريق وسط اللهث والشوق والعطش والإرهاق. لا يمهلنا كثيرًا. لم يكن متأكدًا بعد من نهاية طريقه. ولكن العشق يربك في كل الأحوال .

في هذه الرحلة كان لا بد من المغامرة وحده. فهي ليست مؤهلة لهذا النوع من الرحلات. هي حربه ونفسه التي يغامر بها، وهي حياته التي سيقامر بها. لو شاركها هذه الرحلة فستتحطم قبل البدء في الطريق .

غسل وجهه مرة أخرى، ماذا سيحدث لها بعد هذا الفقد. للأنانية بريق وطريق سلكه للنهاية. وأمه... مرارتها يعرفها، طعمها في فمه .

مسح وجهه بيده والغضب يسيطر عليه، كان يعرف، وكان يتوقع، وأتى بها إلى هنا ليقتلها هذه المرة قتلًا بلا رجعة. علياء، الحلم الذي سيفتته أمام عينيه، كان لا بد من الشرح، ورسم خطط المستقبل، كان لا بد أن يخبرها بما يحدث، ويرشدها إلى طريق النهاية. لم يفعل، ضعفه وطمعه يوديان به إلى آخر الرحلة دائمًا. وهل سيعرف؟ هل سيشعر بها بعد موته؟ هل سيؤلمه ارتعادها؟ وحسرتها؟ وحيدة مثله في رحلتها. لا الأب سند، ولا الأخ سند. تتناثر الأرحام، ويبقى الحرمان يجمعهما معًا. كان لا بد أن يرشدها، لو مات ماذا تفعل؟ يرسم لها طريقًا بدلًا من أن يسقيها الغفلة بين ذراعيه وفي لمساته ويتركها تضمر بعد موته. علياء ليست ككل النساء، رقتها قاتلة، ولا بد من التعامل مع الرقة في حذر؛ فهي تقطع
بلا رحمة. سيتركها متناثرة. أشلاء بعده، يعرف، فالضعف آفة والعشق يفوق كل الآفات، يعمي البصيرة ويتسلق كل الحواجز. ربما بعد النهاية لا يعرف ما حل بها، ربما يواجه أخطاءه بعد موته، وهي كثيرة. وتلهيه نفسه عن كل شيء، وربما يحاسب النفس على أنه لم يفكر ولم يضح، للمصائر بريق تكتبه الأقدار ويفوق القدرات.

لحظة اللا رجعة، يضيء الكون بضوئه الأخير، ولا يعود من عاصر الحقيقة ليحكي عنها أبدًا. لم تصبه رصاصة أمير عابدين، وجاء وقت رد الأمانات وانتزاع الحقوق .

* * *

دخل القسم في خطى ثابتة يسأل عن الضابط، وعند دخوله طلب أن يتكلم مع الضابط وحده، فأمر الضابط الكل بالانصراف، ثم نظر إليه الضابط، وقال في حسم: سأقتلك الآن في اللحظة والتو، تأخرت، لم تشهد ولم تنطق، خداعي يعني موتك. إعدامك. أنت قتلتها، أليس كذلك؟

وقال مؤمن: تسألني وأنت الأعلم بكل الأمور.

قام الضابط وهمَّ بأن يصفعه، أمسك مؤمن بذراعه، وقال: لا تفعل. نتفاهم، أفضل لك ولي.

-مغرور أنت يا مؤمن، تظن أن القنوات الفضائية والجرائد الأجنبية تحميك؟ حذرتك من قبل، ستتمنى الموت قبل نهاية هذا اليوم.

أخرج مؤمن من جيبه ورقة، وقال: أريد أن أشاركك هذا التقرير؛ فقد التبس الأمر على بعض الناس، لا بد أنك لا تعرف، فأنت تبحث عن الحقيقة، وليس عن كبش فداء. في النهاية الحقيقة تسطع، والكذب ينكشح كالكلاب المسعورة بعد سماع دوي الصواريخ، في الحق النجاة، هكذا تعلمنا.

-لا أفهمك.

-اقرأ لعلك تفهم وتستوعب، لدي نسخ كثيرة مع كل الأصدقاء والمعارف.

أمسك الضابط بالورقة، قرأها في صمت ووجهه مكفهر، ثم قال: مزورة؟

-حقًّا؟ ظننت أنها الأصلية؟

-هل تعتقد أنك تستطيع أن تتحداني؟

-أبدًا لا أجرؤ، ولكن هذا تقرير الطب الشرعي، يقول إنها كانت مريضة وتحتضر، وأنني لم ألمسها. ولكن يبدو أن للحقيقة زوايا مختلفة لدى العارفين بكل الأمور.

قال في حسم: ستعدم، ويحاسب من زوَّر لك هذا التقرير.

مدَّ ظهره على المقعد، ووضع ساقًا على ساق، ثم قال: جئت لك بنفسي؛ لأنني أريد التفاهم .

-بل تعمل مع الإرهابيين، أو عميل وجاسوس، تكره مصلحة بلادك ولا تعرف حجم الخطر .

-أفهم وأستوعب، وأريد منك أن تنساني. تغلق القضية أو لا تغلقها، لا يعنيني، ولكنني خارج هذا الموضوع، لم أعتد الكذب.

-تكذب طوال الوقت، تظنني لا أعرف حقيقتك.

-وعندما يمس الكذب شرف بلادي أخجل من أن أكذب.

رنَّ جرس الهاتف، فقال مؤمن في ثقة: تليفونك يا باشا.

رد الضابط، تغير وجهه ثم أغلق الخط. بقى ساكنًا. نظر إلى مؤمن برهة، ثم قال: تفلت منها هذه المرة، ولكنني لا أثق بك .

هزَّ مؤمن رأسه بالإيجاب، ثم قال في تأكيد: أعرف. ولا أنا أثق بك، نتفق على هذا ولا نتفق على أي شيء آخر، اسمح لي بالخروج فلدي عمل .

* * *

ما حدث بين مؤمن والضابط أصبح يُحكى في كل المجالس على المقاهي، وبين جدران البيوت، وبين زوايا الجوامع والكنائس، حقيقة ما حدث أصبحت يقينًا، الكل يعرفونها ويحفظونها عن ظهر قلب، في المقاهي ليلًا يردد الشباب قصة شاب مثلهم انتصر على أصحاب النفوذ، ولم يوافق على الشهادة الزور. جلس أمام الضابط بوجه شامخ وقال «لا»، بينما الجميع يقول «نعم». ساعده أصدقاؤه وكل الصادقين حوله، هذا يوم ينفع الصادق صدقه، لا بد من الاحتفال بهذا اليوم، ولا بد أن يصبح عيدًا قوميًّا في مصر، بدلًا من كل الأعياد مجتمعة، مؤمن كان حظه دائمًا جميلًا. والأقصر كلها تتكلم عنه، والأطفال يشيرون بأصابعهم ناحيته وهو سائر إلى عمله صباحًا، ويهمسون: هو من تغلب على الحكومة. هو من قال الحق.

حالة النشوة أصابت أهالي الأقصر وأسوان وما بينهما فقط، ولم تصل إلى القاهرة ولم تتعدَّ البحر وتسافر إلى أوروبا، فهناك بعد البحر والنهر في بلاد الغرب للحقائق خطوط واضحة، وهذه الخطوط أبهمها مؤمن أكثر وأكثر، فبالنسبة للغرب لا هو بطل، ولا هو مغوار، بل مرغم على التقهقر والهزيمة، فلا هو يعرف معنى النصر، ولا شعبه يفهم معنى الحرية. رددوا في الغرب: «مسكين مؤمن لا يقوى على قول الحق، لا بد أنه يعرف الجاني ولا يتكلم، جبان وخائف.». تجاهلته كل الجرائد هناك، وتلاشت قصته، واضمحلت انتصاراته بالنسبة لهم، وسط الأحداث الجسام والحروب القادمة، وبدا لمؤمن أن كل الحكومات تعرف كل الحقائق كاملة، وأن كل الشعوب يخيم عليها ظلام الارتباك والحيرة.

ليلًا يجلس الشباب والشيوخ في الأقصر في القهاوي وسيرة مؤمن لا تترك ألسنتهم. همس صديق لصديقه: أنا أحكي لك ما حدث. مؤمن لديه أصدقاء كثيرون، الكل يحبه، يخدم الجميع. عندما ذهب ليبلغ عن مقتل السيدة الصينية تكلم مع الطبيب والحارس في الطب الشرعي، كان يعرف أنهم سيزورون التقرير.

قال الصديق مسرعًا: لم تكن صينية كانت أسترالية. الصينيون مثلنا، منهم الكثير، ولا أحد يأبه بموت واحد أو أكثر بالملايين كالمصريين. ساعده أصدقاؤه، تنفع الصداقات في هذه الظروف، ولكنه دفع الكثير، السيدة تركت له الأموال بالدولار، شارك أصحابه فيها، هذه هي الصداقة.

أكمل الرجل في تأكيد: أنا أعرف كل شيء، سمير صديقي أنا أيضًا، سمير الضابط كان لديه رئيس في العمل يذله ويسود عيشته، رجل واصل من كبار الضباط. سمعت أن الأصدقاء أغروه ببعض الحشيش والنساء. صوروه واستغلوا الصور، وطلبوا منه التدخل لإنهاء القضية المزعومة وكف الأذى عن مؤمن. بعدها أصبح كالملاك الطاهر مع سمير .

»-سمعت أنهم دفعوا له رشوة، رشوة كبيرة، وطلبوا أن يكف الضابط عن تنغيص حياة مؤمن، وألا يطلب منه شهادة الزور.«

»غريب أمر مؤمن، لا يشهد الزور حتى على عدوه الذي يريد قتله؟ وكأن الحشيش حلال وليس حرامًا، أليس مشهورًا بمجالس الحشيش مع صديقيه الاثنين؟.«

«قالوا توقف عن الحشيش والخمر منذ زمن. يجلس معهم فقط. رفاق عمر.»

«وهل هناك من يجلس متفرجًا في مجالس الحشيش؟ فقدت عقلك؟.»

«أمير عابدين ينظر إليه الآن كالكلب اللاهث وراء صاحبه في خشوع وذل. يوم قرر أمير قتل مؤمن عرف أن مؤمن يملك مصيره ويعدمه بكلمات قليلة، وأنه لم يفعل، أصدقاء مؤمن أخبروه، كل شيء كان مرتبًا بعناية، وعرف أمير أن الأعداء كثيرون، وأن الصدق لا بد أن ننحني له احترامًا. فلو كان أمير مكانه لشهد على الأم والولد. ولكن مؤمن أخمد سيفه، ولا بد من تقديم فروض الطاعة لمن استطاع الذبح ولكنه لم يفعل» .

"مؤمن مُغامر طوال عمره، خطط لكل شيء، ولم يبال بتهديد أمير، ولا تهديد أصحاب النفوذ. كان مُراقبًا من الجميع، وكان يتحايل على كل المتلصصين. في هذا النوع من الصراع لا بد من التخطيط والمقامرة والاعتماد على اليوم المناسب، واللحظة الملائمة. فهذه صراعات تحتاج إلى قلب شجاع، ولا يقوى عليها سوى الجنوبي."

"سيتزوج من قاهرية؟ ترك كل نساء الصعيد، وسيتزوج من قاهرية. هذه خطيئته الوحيدة على ما أعتقد."

"جميلة. أغرته بجمالها. من قتل الصينية؟."

"قلت لك: أسترالية."!

* * *

قالت علياء لوالدها في إصرار والزهو يملأ قلبها: قلت لك، قلت لك إنه مختلف، وإنه لن يبيع نفسه.

صمت الأب. الكلام عن بطولات مؤمن يملأ الأقصر، وهو يعرف أن زواج ابنته سيحدث لا محالة، ولم يكن ليعترف لنفسه أبدًا بأنها على حق. لا بد أن مؤمن أخطر مما يتصور، سيتزوجها ولكنه سيبقى دائمًا يكرهه.

سماع انتصارات مؤمن من ابنته متوقع؛ فالحب يعمي كل الأبصار، ولكن سماع انتصاراته من أصحاب عربات الحنطور ومريدي المقاهي كان أكثر مما يتحمل الأب؛ فهو الأب الذي لم يعتد أن يخطئ في الحكم على أي شيء، هو العالم والطبيب، يتكلم ولا يسمع، يشرح ولا يفهم، يشفي ولا يمرض، يعرف ولا يتعلم، ثم يأتي هذا الصعلوك النصاب لينتصر عليه،

فلا يسرق ابنته فقط، بل يظهره بمظهر الناقص وطالب العلم وليس العليم بكل شيء. حاول أن يتحاشى مؤمن، وكانت كلماتهما مقتضبة ومبتورة، وقرر أنه سيزور ابنته بعد الزواج، فقط عندما يتغيب الزوج .

ولكنه قال لابنته في إصرار: تفاوَض.

قالت: معذرة؟

-مؤمن الذي تحبينه تفاوَض، حتى لو قال الحق تفاوَض لينتصر.

قالت في إصرار: لا يعنيني ماذا فعل، أثق به وفي كل ما يفعل.

قال الأب في تأكد، ونجاح مؤمن يزعجه إلى أبعد حد: الفرق بين مؤمن وأيمن هو أن أيمن من عائلة محترمة، ولا يعرف الطرق الملتوية لاغتصاب الحقوق؛ لذا بدا لك ضعيفًا، أما من تحبين يا علياء فهو صايع، لا أكثر ولا أقل، يستغل ويبتز ويلتف حول الحقائق ليصل إلى مراده، حتى لو استطاع أن يمنع الظلم فقد استطاع أن يفعل هذا؛ لأنه مدرب على التعامل مع المجرمين والمنحرفين. مؤمن قوي لأنه يعرف التعامل مع الانحراف، وأيمن ضعيف لأنه بريء. ولكن الحب أعمى. ماذا أقول! لا يهم رأيي؟ الآن التفاوض مباح؟

قالت في وضوح: هذا يعتمد على تعريف التفاوض، لا أعتقد أنه تفاوض، مهما فعل لم يتفاوض بالطريقة التي تريدني أن أتفاوض بها، ولم يتنازل عن حقه وحق غيره. سأستمر في القضية لحين ظهور الحق، في المحاولة يكمن الانتصار. هكذا قال لي.

ثم أكملت في قوة: لا توجد مقارنة بين مؤمن وأيمن على الإطلاق، وكأنك تقارن بين ضوء الشمس وضوء بطارية قديمة منهكة، أحدهما رجل والآخَر جبان.

رفع الأب ذراعه في يأس، ثم قال: هو يعرف كل شيء على ما يبدو، جيل مخيف ومغرور، ارتاحت أمك بموتها.

ربتت على يد الأب وقالت: لا تغضب مني .

هزَّ رأسه في استسلام: ستتزوجينه. أعرف، لا بأس.

قالت في رفق: أبي، أتمنى من كل قلبي أن تحسن معاملته وتحبه من أجلي أنا، إذا كنت تحبني أنا.

قال في إصرار: سأحسن معاملته نعم، لأن أخلاقي لا تسمح لي سوى أن أحسن معاملة زوج ابنتي الوحيدة، ولكنني لن أحبه أبدًا.

قالت: حسنًا. يكفيني أن تحسن معاملته.

في نفس اليوم، جلس الأصدقاء معًا يضحكون في نشوة الانتصار على أعلى المركب كما يفعلون دائمًا.

وقال مؤمن: لن أستطيع البقاء طويلًا.

فأجابا الصديقان معًا: أوامر خطيبتك بالطبع.

-لا، ولكنني أعمل مع كمال، ويريد أن يصحو مبكرًا غدًا.

ثم نظر إلى سمير، وربت على كتفه، وقال: شكرًا.

تجاهله سمير، فلم يعتد الأصدقاء تبادل الإطراء أو الشكر، اعتادوا سب النفس والعالم معًا، واللهو والسخرية من كل القوى والأيام الباقية والماضية، لا يحكم أحدهم على الآخر ولا يوبخه، ولا يسأل عن نزواته وجنونه.

قال سمير في حماس: مؤمن. عرفت سر كمال.

- حقًّا؟

- نعم. اطلبْ منه أن يأتي ليجلس معنا، أعدك سأذهلك بما عرفت.

نادى كمال، وجلس الأربعة معًا.

قال سمير في فضول: لم تخبرنا بعد لماذا تم منعك من السفر؟ ربما أساعدك.

قال كمال في امتعاض: لا أريد أن أتكلم في هذا الموضوع.

ابتسم سمير، وقال: رزقك يا مؤمن، طوال عمرك حظك أفضل منَّا، في المال والنساء، أليس كذلك يا محمود؟

قال محمود في إصرار: هو كذلك بالضبط. طوال عمره محظوظ.

قال سمير في غرور: تعرف يا أستاذ كمال أنني ضابط مهم، ولي أصدقاء في أماكن رفيعة المستوى، وكنت أريد مساعدتك، فسألت عنك وعن سبب منعك من السفر.

بدا على كمال الضيق، وقال مسرعًا: هذا ليس من شأنك أصلًا. لمَ تسأل عمَّا لا يعنيك؟

أكمل سمير، وكأنه لا يسمعه: الغريب أنني اكتشفت أنك مزدوج الجنسية، وتستطيع السفر في أي لحظة، هل تصدق هذا؟

نظر إليه مؤمن في ذهول ولم ينطق.

بقي كمال صامتًا. لم ينفِ ولم يعترض، ولم يفقد أعصابه .

قال في بطء وصوت متحشرج: هذه أوطاننا تسجنك بداخلها.

قال محمود مسرعًا: ولكنك لست سجينًا، يمكنك السفر؟

-هل تعلم بما ضحيت؟ بزوجتي وأولادي! بكل شيء!

قال مؤمن مازحًا: حتى أعمل مرشدًا لك؟ أم حتى تبقى هنا؟

قال في يأس: لن تفهموا.

فقال مؤمن: حاول الشرح. تستهويني أسباب إخفاء الحقائق.

-لم يتم منعي من السفر، ولكن تم تشجيعي على السفر إلى فرنسا بجواز سفري الأوروبي وعدم العودة إلى مصر، قال لي بعض أصحاب القرارات إن الخلاص في السفر، ولكن على شرط عدم العودة، والتنازل عن الجنسية المصرية. ماذا أفعل؟

قال محمود في تلقائية: تسافر طبعًا. هل تتساءل؟!

قال كمال في مرارة: أبقى مهددًا بالسجن وحبيسًا، أو أغادر بلا رجعة، عجيب أمر بلادنا! تعذبك بطرق مختلفة، بحبها وكرهها، وإذا غادرت أصبحت تائهًا بين عجيج البشر بلا مأوى، وإذا بقيت تجرعت الخوف وأتأقلم معه.

ساد الصمت، ثم نظر إلى مؤمن وقال: ماذا كنت ستفعل؟

لم يجب، فأكمل كمال: أبتعد عن زوجتي وأولادي، أترك العالم من حولي من أجل زوايا لا أستطيع لمسها تسكن بداخلي، وطن يهددني ويقهرني وليس لي سواه. مشكلة !

قال محمود مسرعًا: هل كتبت كتاب تاريخ فعلًا؟ لماذا لم تتجه إلى الجغرافيا أو الفيزياء؟!

قال مؤمن وهو يتزعم الجدية: لا تمزح يا محمود، هذه مأساة، أستاذ كمال، اعذرني إذا كنت قد اقترحت عليك أن تسافر إلى مصر هذه المرة، سنغير المسار، ما رأيك في جنوب إفريقيا؟

* * *

أمسك مؤمن بيدها، وقبلها قبلة طويلة تلخص كل ما في قلبه.فقالت: وكأنني عشت عمري أبحث عنك، أبحث عن حقيقة من أكون، أنت تعرفني أكثر من نفسي.

هزَّ رأسه بالإيجاب، نظرت علياء حولها وهي تمشي بجانبه وسط السوق، ثم قبلته في خده قبلة خاطفة، ابتسم في رضى عن كل العالم.

قالت : أنا آسفة، لا بد أنني أحرجتك أمام الجميع.

قال في حسم: سأتزوجك اليوم .

ابتسمت في ارتياح، وقالت: متى أحببتني ؟

نظر إليها في دهشة، ثم قال: ماذا ؟

-أعني ؟ متى شعرت بأنك تحبني ؟

صمت لحظات، ثم قال: ربما يوم رأيتك في الحفل بالجلباب الفرعوني .

نظرت إليه في ريبة، ثم قالت: كنت أتمنى أن تكون قد أحببتني من قبل في صمت وأنا لا أعرف ؟

قال في تأكيد - والموضوع يشعره بعدم ارتياح -: كيف أحبك من قبل ؟ أنا لا أتذكر أننا تقابلنا في الجامعة. كنا معًا في الكلية، ولكنني لم أتذكرك. لا يوجد شيء اسمه حب بلا أمل، حب من طرف واحد، لا تصدقي هذا أبدًا.

قالت وهي تمعن النظر إليه: نعم، معك حق .

أبقت الحقيقة بين طيات النفس، لا تنطق بها أمامه أبدًا. فللحقيقة طعم للضعف واليأس، والرجال لا يقدِّرون الضعف ولا يواجهون اليأس، لا بد أن يبقى الماضي مشتركًا بينهما، يعرفه كل على حدة ولا يتكلمان فيه بقية العمر.

مرَّت بأصابعها على يده، وقالت: والآن عندما تتزوجني وتملكني أصبح مثل كل شيء تافه وقديم، وتبحث عن عشق آخر صعب المراس.

نظر إليها في حنان وهو لم يزل يبتسم وقال: ابحثي في هذا المكان في أعماق نفسك عن الإجابة، تعرفين، لا بد أنك تعرفين. أنت بالنسبة لي خارج نطاق الكون، وستبقين هكذا لانتهاء العمر وانكشاف كل الحقائق. أنت من تعطين لرحلتي هدفًا وطريقًا .

-تسحرني كلماتك دائمًا. ستحكي لي بقية القصة؟

ازدادت قبضته على يدها وسار معها متجهًا إلى والدها: أي قصة؟ قصة الأميرة؟

أراحت رأسها على كتفه: كل القصص.

أحاط كتفها في قوة، وكأنه يعتصرها لتنصهر بداخله إلى الأبد، وتبقى معه لنهاية كل الرحلات، وقال في تأكيد: أحكي لك كل القصص .

-تكمل لي قصة الأميرة أولًا.

-في هذه الحالة لا بد أن أغوص في النهر ليلًا لأعرف بقيتها.

-لا، لا تَغُصْ في النهر ليلًا، هل هي قصة حقيقية؟

-ما رأيك أنت؟

-حقيقية، بالطبع.

* * *

التضحية بالمال قليلة أمام التضحية بالوقت والوفاء بالوعد، كان سمير مبتسمًا مبتهجًا وهو يسلم مؤمن توءمه، ولدين في الثامنة، ويقول: علمهما كل شيء عن تاريخها.

ابتسم مؤمن ابتسامة مصطنعة، وقال: من أجلك أنت فقط يا صديق العمر، لا أفعل هذا ولو بالملايين، أنت تعرف.

هزَّ رأسه بالإيجاب: أعرف. سآخذهما منك ليلًا، لديك يوم كامل معهم في الأقصر.

صافح مؤمن صديقه، وقال: سمير، أعدك بأنها ستكون رحلة العمر بالنسبة لهما، رحلة لن ينسياها قط.

رفع الأب يده بالسلام للأطفال واختفى، بدأ مؤمن رحلته، وكان معظمها التفاتًا حول الولدين ومنعهما من خدش الآثار والكتابة عليها والجري وراء الأجانب. جرى الثلاثة معًا بين أركان الكرنك حتى وصلوا إلى البحيرة المقدسة، فقال مؤمن: هذه هي البحيرة المسحورة. هنا يصنع القدماء سحرهم.

نظر الولد لأخيه، ثم همس: نريد دخول الحمام، هل يمكن دخول الحمام في البحيرة؟

قال مؤمن مسرعًا: إياك! أتركم هنا في المعبد على الفور!

نظرا إليه في فزع فأكمل: تعاليا نذهب إلى الحمام ثم نعود لنكمل القصة.

قال الطفل: لماذا يصنع الفراعنة التماثيل العملاقة؟ رقبتي لا تصل إلى وجه الفرعون.

-هكذا كان الفرعون يرى نفسه؟

-هل كان بهذا الحجم؟

-في البداية لا، ولكنه أصبح بهذا الحجم عندما رأى نفسه بهذا الحجم، تفهمون؟

نظر كل طفل إلى الآخر ثم قال أحدهما: أنا أرى نفسي أسدًا عملاقًا أكبر من كل هذا المعبد.

وأكمل الآخر: وأنا أرى نفسي زرافة أطول من كل الفراعنة .

فقال مؤمن: حسنًا

- حسنًا ماذا؟

- أنت زرافة، وأنت أسد .

- ولكنها ليست الحقيقة؟

- إذا اقتنعتما بها ثم نحتموها أو رسمتموها تصبح الحقيقة، والآن أغمضا أعينكما، هل تريان أنفسكما أسدًا عملاقًا وزرافة؟

هز الطفلان رأسيهما بالإيجاب في حماس.

فقال مؤمن: لم يتبَّقَ إلا الرسم وتصبح هذه حقيقتكما.

- كيف؟ أرسم نفسي أسدًا عملاقًا؟ لا أملك ورقة كبيرة بهذا الحجم.

- نعم، هي مشكلة الورقة. عندما تجد الورقة الكبيرة، وترسم نفسك أسدًا عملاقًا تصبح هو. وتصبح هذه حقيقتك .

- تعجبني الرحلة، هل سنعود إلى البحيرة المسحورة؟

* * *

تمت بحمد الله

للتواصل مع المؤلفة :

البريد الإلكتروني :reembassiouney@hotmail.com

الصفحة الرسمية : https://www.facebook.com/reem.bassiouney

الفهرس

قال: لا أطمع في شيء.

ضحكت وقالت: عهدتك تنظر إلى القلوب وترى الضعف الكامن فيها. كنت أفعل نفس الشيء. كلانا كان يلهث وراء المستحيل، يطمع فيه ويقاومه ويروضه، كلانا ضحية الطمع في الأماني التي لم نولد من أجلها. أيها المرشد، اتركني أرشدك إلى ضعف القلوب. هات يديك وتعالَ هنا بجانبي.

قال في تأكيد: اعذريني لا يجوز.

ضحكت وقالت: تخاف مني أم من البتر في جسدي أم من بتر روحك؟

تردد قليلًا، ثم جلس وهمس: لا أخاف منك. كيف أخاف من كل هذه الطيبة؟!

- تشفق علي.
- ليس من أجل البتر.
- من أجل الأماني المستحيلة؟ تفهمني، أليس كذلك؟

«الرحلات كلها أوهام. تخفي الحقائق وتطمس كل الهويات.»

في هذه الرواية رحلات لابد أن نقوم بها و حقائق لها كثير من الزوايا.



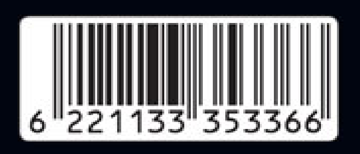
المؤلفة في سطور:

- أستاذة للغويات في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ولها كتب علمية عديدة صدرت عن أشهر دور النشر الأوروبية والأمريكية.
- صدر لها روايات: «بائع الفستق» و«دكتورة هناء» و«الحب على الطريقة العربية» و«أشياء رائعة».
- حصلت على جائزة أفضل عمل مترجم في أمريكا عام ٢٠٠٩ عن رواية «بائع الفستق»، وعلى جائزة ساويرس للأدب عام ٢٠١٠ عن رواية «دكتورة هناء».
- ترجمت أعمالها إلى الإنجليزية والإسبانية والإيطالية واليونانية.

تصميم الغلاف: يسرا علي






6 221133 353366